الفصل الثالث
بين التجديد والتطوير

بعد أنْ بيَّنا البدعة وأثرها على الأمَّة، وخطرها على الدِّين، والفرق بين البدعة الحسنة والبدعة السيِّئة، وبيان كيف حفظ الله تبارك وتعالى هذا الدِّين مِنَ البدع والخُرافات والخُزعبلات، في حين تبدّلت أديان مَنْ قبلنا، والفرق بين البدع في الدِّين والبدع في الدُّنيا، ويبقى لنا بيان فلسفة بعض الناس تجاه هذا الموضوع، ثم بيان حدود الإصلاح والتجديد.

❁ ❁ ❁

أولا: بعض الاتجاهات المعاصرة تجاه هذا الموضوع:

صراع اليوم بين العقل والشَّرع، وبين العلم والشَّرع. وبين المصالح والشَّرع، وبين الفطرة والشَّرع، وبين الواقع والتطور السريع والشَّرع، وهو صراع مصطنع.

فهذه خمسة أوجه يجب بيانها وتوضيحها وإزالة الالتباس، والشُّبُهات حولها.

الوجه الأول: بين العقل والشَّرع :

سبق الحديث عن هذه المسألة عند الحديث عن البدع، وهنا نزيد الأمر إيضاحًا لمعرفة العلاقة بينهما عند الرغبة في التجديد والإصلاح، وإنْ وُجِدَ التناقض؛ فإنما يكون الخلل في عدم إدراك العقل وقصر فهمه وغفلته وسهوه، وسعيًا لمصلحةٍ لنفسه أو لمن حوله، أو أنْ يكون الشَّرع الذي وصل لهذا العقل غير صحيح لا مِنْ جهة السَّنَد أو المتْن، وصدق الله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

ولقد أَلَّف جهابذةُ العلمِ الكُتُبَ، وصنَّفوا المصنفات في بيان التوافق التام بين الشَّرع الصحيح والعقل الرشيد. - والعقل الرشيد هو الذي خلا صاحبه مِنَ الجنون أو الهَوَىٰ أو الجهل أو الكُفْر أو الفِسْق أو الظلم أو الجاهلية- وفي الحديث قوله ﷺ: **{ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَد رَشَدْ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولهُ فَقَدَ غَوَى وَضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا }**(١).

ولقد حمَىٰ الإسلام العقل بأنْ جعله أحد الأسس والغايات التي يقوم عليها التشريع في الإسلام وهيٰ: (حفظ الدِّين والعقل والنَّسل والنَّفس والمال)، ولقد حمىٰ الله تعالىٰ العقل فحرَّم عليك المسكرات بشتىٰ أنواعها، ودعاه إلىٰ التفكُّر والتَّدبُّر في آياته الكونية والمقروءة، ولم يُطالبه بالتكاليف حين زواله بنومٍ أوإغماء، ورفع عنه الحرج فيما أخطأ فيه أو نسي أو استُكرِه عليه.

• ولقد فتح الإسلام المجال الواسع الرحب الفسيح في التأمُّل والتدبُّر في آيات الله تعالىٰ المقروءة والمرئية، وكذلك في استحداث أساليب وطرق لتوصيل المعلومات، وكذلك في مجال البحث المعرفي في علوم الكون والبحث والتجربة، وكذلك في استحداث نظم ووسائل لحياة الناس ومعاشهم، فهل لا يكفيه ذلك حتىٰ يطغىٰ ويتخطَّىٰ لا مجال فيه، ولا قوة عليه إلَّا عن طريق الوحي، وهو مجال الدِّين الذي شرعه الله تعالىٰ وارتضاه للعالمين!

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم ك: «الجمعة» ب: «تخفيف الصلاة والخطبة» ح: «٨٧٠» عن عدي بن حاتم ﷺ.

•• شبهة أولى والردّ عليها:

يقول البعض: إنَّه ثمة خلافات وقعت في زمن النَّبي ﷺ واختلف الصحابة في التطبيق حسب عقولهم، وتأويلهم مثلما حدث في قوله ﷺ: { **لا يُصَلِّيَنَ أَحَدُكُم العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَة** }(١). فاقترب موعد صلاة المغرب، فصلى فريقٌ منهم في الطريق، وصلى الفريق الآخر لَمَّا وصل بني قريظة مع النَّبي ﷺ، فيقولون إنَّ في هذا دليلًا على عمل العقل في تطبيق كلام النّبي ﷺ.

ونقول - وبالله التوفيق -:

١- إنَّ الاجتهاد في التطبيق كان في زمن النَّبي ﷺ وهو بينهم، وإقراره ﷺ لهذا الخلاف والاجتهاد في سُنَّته، فلما رفعوا الخلاف إلى النَّبيِّ ﷺ كان هذا دليل إيمانهم؛ لأنه حكم بينهم عند الاختلاف، كما قال القرآن وأمَر بَرِدِ التنازع إلى الله ورسوله: (**فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩**) [النساء]. فإذا فعلنا مثلهم، واختلفنا في فهم النص وردَدْنا النزاع إلى الله ورسوله لا إلى الهَوَى أوالجدل كان ذلك صوابًا.

٢- الحديث كان في وقت الذهاب إلى معركة وقتال بني قريظة وبعد الانتهاء مِنْ غزوة الأحزاب، وما كان فيها مِنْ مشقَّة وعنت وتعبٍ، وانظر لوصف الله تعالى لها: (**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١**) [الأحزاب].

---

(١) أخرجه البخاري: ك: «الجمعة»، ب: «صلاة الطالب والمطلوب»، ح: «٩٤٦»، ومسلم: ك: «الجهاد والسير»، ب: «المبادرة بالغزو ..»، ح: «١٧٧٠» مِنْ حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولقد نصَبَ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ نَصَبًا شديدًا، حتىٰ وقع بعضهم في الإغماء مِنْ شدة التعب وقسوة الجوع، وربط النَّبي ﷺ الحجر علىٰ بطنه، وكان أمر النَّبي ﷺ لأصحابه وهم في طريق العودة مِنْ غزوة الأحزاب بعد أنْ جاءه جبريل عليه السلام، وطلب منه الذهاب إلىٰ بني قُريظة، وتخطيط النَّبي ﷺ وتدبيره العسكري يلزم الوصول إلىٰ موقع المعركة قبل المغرب، فأخبرهم مِنْ أجل الإسراع في الطريق، وتقدير المصالح العُليا وتفضيلها، وخاصة أنَّ الأمر متعلِّق بين فريضتين «**الجهاد والصلاة**» لا بين دنيا ودين.

٣- إِنَّ المسألةَ التي وقعت بين الصحابة اجتهاد مأجور عليه مِنَ الطرفين، ولا تعارض في ذلك مع مَنْ يقول: لا اجتهاد في النص؛ لأنَّ هذا القول مخصوص بالنصوص التي لا تحتمل إِلَّا تأويلًا وتفسيرًا واحدًا، ولا مجال فيها للاحتمالات، لذا قال بعض الفُقهاء وخاصة عند القضاء: «إنَّ الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال»، واختلاف الصحابة ﷺ كان في الاحتمالات والتأويلات، وكان في التطبيق لأمر النَّبيِّ ﷺ وليس في التشريع.

٤- قوله ﷺ: **{ لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ العَصْرَ.. }**؛ كقوله ﷺ: **{ لَا صَلَاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إِلَّا فِي المَسْجِدِ }**[1] فهذا النفي ليس نفي تحريم إِنَّما نفي للكمال، أي: لا صلاة كاملة الثواب والأجر إِلَّا في المسجد، ولا يُستدل ولا يُفهم من الحديث حرمة الصلاة وكونها غير صحيحة إذا صلَّىٰ جار المسجد في منزله أو متجره، أو كونها غير مقبولة، أو لا تسقط عنه الفريضة، ودليل ذلك: أنَّ مَنْ صلَّىٰ في منزله صحَّت صلاته؛ لقوله ﷺ: **{ مَنْ نَسِيَ صَلَاةً أَو نَامَ عَنْهَا فَكَفَّارتِها أَنْ يُصَلِّيهَا إِذَا**

---

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٢/ ٢٩٢) عن جابر بن عبد الله ﷺ، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «السلسلة الضعيفة» (١٨٣)، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩١٥) عن عليّ موقوفًا.

ذَكَرَهَا}[1]، ولم يثبت لدينا أنه ﷺ أمر أحدًا صلَّى خارج المسجد بإعادة الصلاة ثانية، مع إثمه بترك صلاة الجماعة في المسجد.

٥- كان اختلافهم في وجود المشَرِّع معهم ﷺ، فلو كان في تصرُّفهم واختلافهم مخالفة لردَّهم رسول الله ﷺ إلى الصَّواب.

٦- إنَّ الدِّين قد اكتمل، والشريعة قد تمت، والأحكام قد فُصِّلت، وما عاد الناس في حاجة إلى ذلك الخلاف وتعليم النَّبيِّ ﷺ وأدائه لرسالته قد تمت.

قال تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]. وقال تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ**﴾ [فصلت: ٣].

وقال تعالى: ﴿**تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿**وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٥٤].

٧- إنَّ مثل هذه الخلافات التي حدثت بين الصحابة محدودة جدًّا، ومَنْ اختلف عليها قِلَّة قليلة جدًّا. والعبرة بمجموع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا ينبغي لنا أنْ نترك حرصهم على الطاعة طيلة حياتهم وفي مجموعهم، ثم نركز على الخلاف البسيط والقليل؛ بل والنادر في حياتهم.

وتعجب مِنْ تصرُّف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هل تُصَدِّقُ أنَّ الذين لم يصلُّوا العصر في الطريق انتظروا الذين صلّوا والجميع يسيرون في رَكْبٍ واحد.

فإذا أردنا أنْ نملأ مجلدات في سيرتهم وسرعة استجابتهم لرسول الله ﷺ لكان ذلك، والقرآن يتنزل عليهم يمدحهم بقوله: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١].

---

(١) أخرجه البخاري: ك: «مواقيت الصلاة» ب: «مَنْ نَسي صلاة ..»، ح: «٥٩٧»، ومسلم: ك: «المساجد ومواضع الصلاة»، ب: «قضاء الصلاة الفائتة»، ح: «٦٨٤» عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب].

وكيف يخالفون أمره بعد ما سمعوا قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات].

وهكذا كان دأبهم مع النَّبيِّ ﷺ في أغلب أحوالهم.

انظر مع اختلافهم وإنكارهم على بعضهم لم يتفرقوا ولم يُعادِ بعضُهم بعضًا، ولم يفقدوا الألفة والمودّة والمحبَّة بينهم؛ بل حسموا الأمر بينهم بالرجوع إلى النَّبيِّ ﷺ، فصار اجتهادهم ليس له محلًّا للاستدلال أو العمل به إلَّا بعد الرجوع إلى المُشرِّع ﷺ.

٨- إنَّ في الحديث تزكية لأصحاب النَّبي ﷺ في حرصهم على العبادة في وقتها، وصحّة عقيدتهم ونباهتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأهمية فريضة الصلاة عندهم.

٩- في هذا الحديث احترام لدور العقل وتناسقه مع الشَّرع. فكان الخلاف في الالتزام بالصلاة وهي مِنَ الشَّرع، والإسرَاع كما أمر النَّبي ﷺ وهو مِنَ الشَّرع، ومَنْ خالف الأمر وصلى في الطريق أعد نفسه للالتزام بالطاعتين: الصلاة والوصول إلى بني قريظة للجهاد مع النَّبي ﷺ، فهو خلاف في تقديم أي الفريضتين أولًا، وليس في إقامة واحدة وترك أخرى.

١٠- وذلك دليلٌ واضح في حرصهم على عدم التخلف أو التأخر عنه، كحال

المنافقين الذين تعلَّلُوا بالأعذار، وفضحهم الله تعالى لما تخلفوا؛ لكنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما تخلّفوا وما تأخّروا، ولكن دفعهم الحرص على الجمع بين الفضيلتين: الصلاة لوقتها، وطاعة النَّبي ﷺ في الأمر.

ومِنَ المحتمل أنْ يكون أحد الذين أدَّوُا الصلاة في الطريق قد استأذن النَّبي ﷺ في صلاة العصر، وخاصّة أنَّ الطريق سفر، وللصحابة الجمع والقصر فيه لطول المسافة.

فلا داعي أنْ نشغل أنفسنا بهذا الخلاف ونترك الأمور التربويَّة، والفوائد العلميَّة والحديثة في هذا الحديث.

ومَنْ أراد أنْ يرجع إلى المزيد فليرجع إلى كتب السُّنَّة وشروحها، وكتب الفقه، فما أجمل وأروع وأكثر ردود أهل العلم على هذه الشبهة.

❁ ❁ ❁

•• شبهة ثانية والرد عليها:

• **يقولون**: الإسلام جاء في بيئة وزمن فناسبها، أمَّا الآن فلنا أنْ نختار منه ما يُناسب بيئتنا وزماننا.

نقول وبالله التوفيق: لو كان هذا الكلام صحيحًا لما كان الرسول ﷺ خاتم الأنبياء، ولكَانَت حاجة الناس اليوم إلى الرسول والهداية أشّد مِنْ أي عصر مضى، وخاصة أنَّ الجاهلية التي جاء الإسلام لمحوها ومحاربتها وإزالتها قد عادت بصورة أو بأخرى، فكان الناس يعبدون الأصنام، واليوم يعبدون الأوثان (كما يُعبد بوذا اليوم)، ويعبدون عشرات الآلهة، فَمِنْ عَبدَة الشيطان إلى عَبدَة فروج النساء، إلى عَبدَة الجان والشمس والقمر والبقر والنار والأضرحة والقباب، وغير ذلك مِنَ الآلهة المنتشرة في هذا الزمان، هذا بجانب مَنْ يَعبُد المال والدرهم والدِّينار والقطيفة والمرأة والقوانين والعادات والتقاليد، ومنهم مَنْ يعبد الأهواء والأوهام والأفكار

والإلحاد، ومَنْ يعبد الله تعالىٰ علىٰ حرف، ومَنْ يسأل الأموات الحاجات والضروريات وتفريج الكروبات.

فمن أيْن نَأتِي اليوم بدينٍ ورسولٍ لهؤلاء جميعًا؟

❁ ❁ ❁

• فكون النَّبي ﷺ خاتم الأنبياء، وكون الله تعالىٰ حفظ كتابه وسُنَّة نبيّه مِنَ التّحريف والتّبديل، وكون هذه الأمَّة خاتمة الأمَم وكونها ولَّادة بفقهائها وعلمائها، والعلماء فيها ورثة الأنبياء، والأمَّة أُمَّةُ هداية وتبليغ، ومسئولة أمام الله تعالىٰ عن هداية الناس وتبليغ رسالة الله تعالىٰ إلىٰ الناس أجمعين، لذا تميّزت بالسند المتواصل، والمتن المنقّح المحقّق.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب]، وسبحان الله العظيم كيف استمرت هذه الأمَّة وتواصلت علىٰ مدىٰ أربعة عشر قرنًا مِنَ الزمان، وكيف استفادت البشريَّة وسعدت وتغيرت معالمها وحضاراتها بفضل الله تعالىٰ ومنّته علىٰ الناس بأمَّة الإسلام، فلماذا الآن أيها المتفلسف المتفيهق هذا الكلام؟ إنْ كنت إباحيًّا ترىٰ الإسلام قيدًا علىٰ شهواتك المحرَّمة، وحُريّتِك الإباحيَّة وفجورِك، فتريد أنْ تنتمي إلىٰ الإسلام مِنْ جهة أنه خير دين، وأصحُّ رسالة، وأسلم وأنقىٰ مِنْ التحريف والضلال، وموافق للعقل والفطرة، وفي نفس الوقت تريد أنْ تعيش وسط بيئة أحلتْ الحرام، وحرّمت الحلال فكانوا فيها حماة للرذيلة باسم الحريَّة، ودعاة للرِّبا باسم النظام العالمي، تريد أنْ تشرب الخمر، وتمارس البغاء، وتسير وفق هواك، وترىٰ لا فرق بينك وبين أهل الكُفر في نظام الحياة، وأنت بذلك تريد إسلامًا مخصوصًا مفصَّلًا وعلىٰ حسب هواك وتفكيرك، ووفق بيئتك وزمانك فيكون لدينا بذلك مئات الألوف مِنْ أنماط الإسلام ويضيع الإسلام الحقّ بينهم!

• بالطبع هذا مستحيل، فبقاء القرآن كما هو والسُّنَّة كما هي لهو أكبر ردّ مناسب على هؤلاء، ثم هم يُقلدون في ذلك سلوك أعداء الإسلام الذين عجزوا عن صرف المسلمين عن القرآن الكريم، واستبدلوا قرآنًا محرَّفًا سموه «**الفرقان المبين**» ولما فشلوا وخابوا وعجزوا، اتجهوا لصرف المسلمين عن التأويل والتفسير الصحيح للقرآن والسُّنَّة (وما تم في حرق مكتبة بغداد، وإتلاف المخطوطات الإسلاميَّة لأكبر دليل على ذلك)، فلما عجزوا أيضًا عن تحريف التأويل لجأوا أخيرًا إلى تشويه صورة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم يعلمون أنهم أول السند المتواتر الذي نقل إلينا هذا الدِّين وبذلك يحدث انقطاع في نقل الدِّين إلينا كما حدث عندهم، يريدون بذلك حرماننا مِنْ أهم ميزة ميّزنا الله تعالى بها، وحفظ لنا هذا الدِّين سليمًا مِنَ التّحريف والتّأويل، وهذا السند المتواتر سيظل تحديًّا لهم إلى قيامة الساعة.

• وهناك ثلاث مراحل نهجها أعداء الإسلام لمحاربة هذا الدِّين بالفكر والثقافة:

الأولى: تحريف القرآن.

والثانية: تحريف التأويل.

والثالثة: تشويه الجيل النموذج العملي للإسلام، وأول طبقة في هذا السند المتواتر، أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين.

• والإسلام ترك مجالًا واسعًا مِنَ الدُّنيا تعمل فيه وفق علمك **{ أنتم أعلم بشئون دنياكم }**، وإنما نظَّم لك ما يجعلك تستفيد بهذه الدُّنيا بدون كدر أو ضرر.

والإسلام بذلك تجده وضع أُسسًا للحياة، وحدَّ حدودًا للحلال والحرام، والمعاملات والتشريعات، والمواريث والأحكام، وأرسَى عقيدة تحمي المسلم مِنَ الشِّرك والخُرافات والخُزعبلات، وفرض عبادة يترقَّى بها وينصلح بها قلبه وروحه، ثم ترك الدُّنيا بأسرها ليبدع الناس فيها، ويخترعون وسائل تساعدهم

على مسايرة الحياة وتطورها السريع ترك الإسلام الدُّنيا للعقل يُطوِّر فيها ويُحسِّن ويخترع ويُبدع، فلماذا لم يترك العقلُ الدِّين للمشرِّع جلَّ وعلا ليُشرِّع له ما يحميه وما يحفظه وما يُسعده؟!

❁ ❁ ❁

•• شبهة ثالثة والرد عليها

• **قالوا**: زواج المُتعة حلال، ولا يوجد سبب لتحريمه، ويستدلون بأفعال وأقوال مِنْ هنا وهناك، بل ذهبوا إلى أشدَّ من ذلك فقالوا: لا قيود إذا أراد الرجل أنْ ينام مع المرأة ولو ليلة واحدة ما دام تم ذلك بالتراضي (طبقًا ووفقًا للقوانين الفرنسية، التي فضَّلها أصحاب الأهواء عن القوانين السماويَّة).

وللردِّ على هؤلاء نقول - وبالله التوفيق -:

إنَّ كلامهم هذا دليل على اتِّباعهم الهَوَى، وجدالهم في ذلك أصدق برهان، فعلامة أصحاب الهَوَى أنْ تكون لديهم فكرة ثم يأخذون في البحث حتى يجدوا دليلًا يستطيعون تأويله حسب فكرتهم ويستدلون به، وذلك مِنْ تلبيس إبليس عليهم حتى يُقَّر عليهم الباطل، ولقد حكى الله تعالى عن أمثالهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر].

ولا يجوز شرعًا ولا عقلًا مخالفة الحديث الصحيح بفعل أو قول أي أحدٍ، فلا يفضل فعله أو قوله على ما صح عن النَّبي ﷺ مِنْ قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

❁ ❁ ❁

• إن أحد الصحابة أو بعضهم لم يصل إليه النص الأخير في تحريم زواج المتعة، فيسقط الاستدلال بفعله أو قوله إذا خالف النص الصحيح.

وعمل الصحابي أو قوله إذا خالف الأغلبية مِنَ الصحابة ﷺ مِمَّنْ هُمْ أسبق منه

إسلامًا، وأكثر قُربًا مِنَ النَّبيِّ ﷺ وعلمًا وتزكية فلا يجوز حينئذ ترك سبيل المؤمنين له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ اتِّباع سبيل المؤمنين فرض عين، ومما هو معلوم بالضرورة أنَّ سبيل المؤمنين ليس هو كل المؤمنين ولكن غالبيتهم وأكثرهم بشرطين، هما:

١- عدم مخالفتهم للرسول ﷺ ومعرفتهم لهديه.

٢- أنْ يكونوا مِنَ المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤].

❁ ❁ ❁

• ولقد ثبت في الأحاديث الصحيحة التحريم التام والنهائي لزواج المتعة، ولم يخالف ذلك أيٌّ مِنَ المسلمين علىٰ مدار الرسالة حتىٰ اليوم إلَّا أفراد قلائل مِنَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يصل إليهم أحاديث التحريم، ولا يجوز التأسِّي بفعلهم ومخالفة النَّبي ﷺ وعموم جمهور الصحابة وإجماع المسلمين، عدا الشِّيعة، وأصحاب الهَوَىٰ والجدل.

أمَّا قولهم: إنَّ النِّكاح بالتراضي بين الرجُل والمرأة لا يكون زنا، فنحن نسألهم إذن ما هو الزِّنا؟ هم يُريدون ما عليه الغرب مِنْ أنَّ الزِّنا بالتراضي لا عقوبة عليه إنما العقوبة علىٰ الاغتصاب وعدم التراضي. وهذا كلام هُراء لا يصح عقلًا ولا شرعًا ولا عُرفًا.

ولو كان هذا المبدأ لصار كل حرام بالتراضي حلالًا، الخمر إذا شربها وهو راضٍ تكون حلالًا علىٰ مذهبهم الشيطاني (وأعوذ بالله أنْ أنسب إلىٰ الشيطان ما قد يستحىٰ منه). والرِّبا إذا تمَّ بالتراضي بين الطرفين يكون حلالًا أيضًا علىٰ

مذهبهم الموافق لمذهب أهل الكُفر والضلال، وعقوق الوالدِّين، والشِّرك والسِّحر والانتحار وقتل النَّفس، ساء ما يحكمون، وبئس ما يصنعون.

ولقد زنا ماعز والغَامدية ﷺ برضاهما، واعترفا وأقرَّا، فأُقيم عليهما الحدُّ، ومدح النَّبيُّ ﷺ حرصهما على التوبة والتطهير.

ومِنَ العجبِ أن دولة إيران التي أكثرها شيعة تعاني مِنْ وجود أكثر مِنْ سبعِمائة وخمسين ألف لقيط بسبب زواج المتعة، حتى إنهم يفكِّرون في صياغة قانون يحرِّم ويجرِّم زواج المتعة.

❁ ❁ ❁

• ومما يغيظ أعداء الإسلام، ويحرق قلوبهم، حتى كادوا يموتون بغيظهم نظامُ الزواج في الإسلام، والترابط الأُسري، وعدم اتخاذ الأخدان، وعدم وجود الحرية لكلٍّ مِنَ البنت والولد في ممارسة الجنس بلا قيود، وودوا أنْ نكون أمثالهم.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

[النساء: ٨٩].

ومِنْ كلام العرب: « ودت الزَّانية أنَّ كل النساء زنَت؛ وذلك حتى لا تكون ممقوتة ومحتقرة وخسيسة بين أقرانها وأمثالها ».

• أين نذهب بالأدلَّة الشرعيَّة والأحاديث النبويَّة والآيات القرآنيَّة التي تُفَرِّقُ بين النكاح والزِّنا، وأباحت التعدد وحرَّمت الخليلات والأخدان، وكذلك التي أوجبت الولي حماية ورعاية لحقوق المرأة وصيانة لها، وأوجبت لها المهر والإيجاب والقبول، وجعلت الجدية والباءة شرطًا في الزواج وإعلان النِّكاح، وحفظ الأنساب، ورعاية الأولاد - بنين وبنات - وبيَّنت فضل العفاف وأهمية العِفَّة، وأمرت بالتستُّر والحجاب.

• إنَّ مشاكل الزواج والطلاق تكْمُن في الانحلال والتسيُّب؛ وحلُّها في العودة إلى الدِّين، وتيسير المهور، ومساعدة الشباب على النِّكاح حماية لهم مِنْ الرذيلة، وعدم التشدُّد في تكاليف التأثيث والسكن، وإعادة النظر في كتابة المؤخَّر وقائمة المنقولات بما يتَّفق مع أحكام الإسلام.

• ولقد يَسَّرَ الإسلام المهور والزواج، مقارنةً بما عليه الناس اليوم مِنْ تعقيدات، وانتكاسة الفطرة لديهم، وتفضيلهم العادات والتقاليد وحبّ الظهور والرِّياء أكثر مِنْ تفضيلهم التعاليم الإسلامية الراشدة والهادية واليسيرة دون تكلُّف أو تعنُّت، هذه التعاليم الرَّاقية التي تميَّزت بالبساطة والسهولة.

انظر إلى قوله ﷺ: **{ أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ }** ... **وقوله: { زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ }**[1]، وقوله تعالى: **(إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ)** [النور: ٣٢].

وكانت هذه التعاليم في مجتمع طاهر نقي، يحترِم المرأةَ، خالٍ مِنَ الفواحش والفِتَن والتبرُّج والسُّفور، والرجال يَغارون على العِرْض والدِّين.

أمَّا اليوم في زمن الانتكاسة والأيام النَّحِسات كثرت الفتن وانتشر التبرُّج والسُّفور، واختلطت النساء بالرجال، وتشتَّت كثير مِنَ الأسر، وكثرت الفواحش وأماكن اللهو والرقص، ومع ذلك تشدَّدنا في الزواج، ويسَّرنا سبل الزِّنا والفساد.

شيء عجيب!! فالمفروض أن يعود أولياءُ الأمور في هذا الزمان للبحث عن الرجل الصالح، والشاب الذي نشأ في طاعة الله، وخاصةً إذا كان مِنْ أسرة صالحة، وبيئة طاهرة فيَعرضُ عليه وليَّته، ويتساهل معه ويساعده قدر الإمكان وفي حدود الاستطاعة، وذلك عملًا بقوله ﷺ: **{ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ**

---

(١) أخرجه البخاري: ك: «فضائل القرآن»، ب: «خيركم مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه»، ح: «٥٠٢٩»، ومسلم: ك: «النكاح»، ب: «الصداق وجواز كونه تعليم قرآن»، ح: «١٤٢٥» عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ}، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: {إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ}، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ}(١).

وبذلك ينال كرامتين هما:

الأولى: فرحته بزواج وليَّته وسترها، وفرحها هي وبهجتها، وحمايتها مِنْ أنْ تقع فريسة للتيَّارات الشّاذَّة، وبين أنياب الذّئاب البشريَّة بأفكارها المتعدّدة مِنَ الزواج العُرفي، والزواج بالدَّم، وبالوشم، والزواج «**الفِرند**»، والزواج على الطريقة الأمريكيَّة - عفوًا الشيطانيَّة - وهلُمَّ جرًّا.

الثانية: وصوله إلى مرحلة الحجاب مِنَ النّار بحُسن تربيته لها على الإسلام والأخلاق وإتمامًا بالزواج، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: { لَا يَكُونُ لِأَحَدِكُمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ }(٢)، وقوله ﷺ: { مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيءٍ مِنَ البَنَاتِ فَصَبَرَ عَلَيْهُنَّ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ }(٣).

❁ ❁ ❁

جلستُ أحصر المآسي والآثام في تزويج البنت نفسَها لشاب بعيدًا عن الأهل وبدون موافقة الولي، فوجدت العَجَبَ العُجَاب :

١- فهي تحرم نفسها مِنَ الفرحة والبهجة بين الأسرة والعائلة عند الخطوبة والعقد والزِّفاف.

---

(١) أخرجه الترمذي: ك: «النكاح» ب: «إذا جاءكم مَنْ تَرْضون دينه فزوجوه» ح: «١٠٨٥»، عن أبي حاتم المزني ﷺ، وقال: حسن غريب.
(٢) أخرجه الترمذي: ك: «البرِّ والصِّلة» ب: «ما جاء في النَّفقة على البنات والأخوات» ح: «١٩١٢» عن أبي سعيد الخدري، وضعَّفه الشيخ الألباني ﷺ في «ضعيف الجامع» «٦٣٦٩».
(٣) أخرجه الترمذي: ح: «١٩١٣» عن عائشة ﷺ، وقال: حديث حسن.

٢- أن هذا الزواج لا يخلو مِنَ الإثم الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: { **وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** }(١).

٣- عدم توفُّر أول درجات النِّكاح في الرَّجُل مِنَ الجديَّة والالتزام واستطاعته الباءة وتجهيز منزل الزوجيَّة، فالجديَّة شرط في الزواج لقوله ﷺ: { **ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ** }(٢) فأين الجِدِّيَّة في هذا الزواج والأمان والإعلان؟

٤- عدم توفُّر الحماية والأمان لهذه البنت؛ مما يعرِّضها للمخاطر والمهانة، وأنْ تُترك بسهولة، كما جرَّت نفسها للهلاك، وسوء الأخلاق بسهولة.

٥- الحرام دائمًا يجرُّ إلى حرام آخر، فقد تضطرُّ البنت إلى استخدام وسائل منع الحمل المسببة للأمراض والسرطان، وتضطرُّ للكذب الذي يَهدي إلى الفجور، وقد تضطرُّ إلى قتل النفس إذا ظهرت عليها أعراض الحمل، وإلى الكذب على الله ورسوله في أحكامه ومخالفة تشريعاته، ولو كان في ذلك الزواج بهذه الطريقة خير ونفع للبشريَّة لدلّنا الله ورسوله عليه، وأوجبه علينا.

٦- فيه مخالفة ذلك للنصوص القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة والتي نهت عن النكاح بغير إذن الأهل، واشترطت الوليَّ للمرأة، مما يجعله مُحرَّمًا.

٧- لا يخلو ذلك مِنْ تبعيّة وتشبُّه بالمغضوب عليهم والضّالين في أفعالهم وحياتهم، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم.

٨- فيه قطع الأرحام الذي يُعَدُّ مِنْ أظهر أنواع الإفساد في الأرض، ومِنْ أكبر

---

(١) أخرجه مسلم: ك: «البر والصلة والآداب»، ب: «تفسير البر والإثم»، ح: «٢٥٥٣» مِنْ حديث النواس بن سمعان ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود: ك: «الطلاق»، ب: «الطلاق على الهزل»، ح: «٢٩١٤» عن أبي هريرة ﷺ.

الكبائر، ويُلحَق بهذا عقوق الوالدِّين وغضبهم وسخطهم، وسخط الله تعالىٰ لسخطهم، وكيف يتقبَّل الله ﷻ دعاء الوالدِّين علىٰ أولادهم، ولو لم يكن هناك إلَّا غضب الوالدِّين ودعاءهم علىٰ أولادهم بسبب هذا الانحراف والسلوك لكفىٰ العاقل والعاقلة بُعدًا عن هذه الآثام.

٩- شيوعُ الانحلال في المجتمع، وصعوبة التفرقة بين الزُّناة والمتزوجين سرًّا، ويؤدي ذلك إلىٰ شيوع الأخلاق الفاسدة، وانتشار الرذائل والأوبئة والأمراض العضويَّة والنفسيَّة.

١٠- عدم تحقيق الغاية مِنَ الزواج مِنَ السَّكَن والسَّكِينة والذريَّة وتقوية الروابط بين الأصهار، وإقامة الدِّين والتّقوىٰ، وتحقيق البهجة والفرحة بين المتصاهرين، والتبادُّل والتزاور والهدايا، مما يحقِّق مجتمعًا قويًا مترابطًا متماسكًا، ويُحقق الغايات التي مِنْ أجلها شرَّع الله النِّكاح وحرَّم السِفاح.

❁ ❁ ❁

الوجه الثاني: بين الشرع والعلم:

• ومِنْ تَميُّزِ الإسلَام عن غيره مِنَ الشرائع السابقة حثّه علىٰ العلم والفكر والقراءة والبحث، فكانت أول آية ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق]، وعليه ﷺ أُنزِلَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

وسبحان الله جاءت هذه الجملة بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

ولقد ورد في القرآن الكريم أكثرُ مِنْ ألف آية تُرشدنا إلىٰ العلم، وتحتوي علىٰ إعجاز علمي عجيب شهد له العدوُّ قبل الصَّديق، وأسلم بسببها الآلافُ

والملايين مما لم يوجد مثله في أي كتاب سماويٍّ آخَرَ.

• فأين التعارض بين الشرع والعلم في الإسلام؟

المسلمون - وأخصُّ منهم العُلماء والفُقهاء الذين نبغوا في علوم اللُّغة والتّفسير والحديث، ومع ذلك وضعوا الأسس لعلوم الفيزياء والطبّ والفَلَك والحساب والصيدلة والأعشاب وغيرها، مما بنى عليه الغرب حضارتهم وعلومهم، واستفادوا منها أعظم استفادة، ولا يُنكِر جهودَهم إلَّا مكابرٌ أو جاحِدٌ أو جاهلٌ.

بل وضعوا الأسُس لأساليب البحث وجمع المعلومات، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، وصحَّحوا أخطاء غيرهم، وابتدعوا علومًا جديدة: كعلم الجبر، وحساب المثلثات، واكتشفوا خواص المادة والتي هي أساس علوم الفيزياء والكيمياء، واكتشفوا الدورة الدمويَّة، وأسّسوا علم البصريَّات، ومنحوا البشريَّة سبيل التقدّم العلمي الصحيح، وهو المنهج التجريبي الذي ما كانت أوربا لتتقدم خطوة واحدة بدونه.

وما أروعَ قولَ القائل:

مَلَكْنَا هَذِهِ الدُّنيا قُرُونَا ... وَأَخْضَعَهَا جُدُودٌ خَالِدُونَا
وَسَطَّرْنَا صَحَائِفَ مِنْ ضِيَاءٍ ... فَمَا نَسِيَ الزَّمَانُ وَمَا نَسِينَا
وما فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى ... مَضَى بالمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا
وأصبحَ لَا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي ... وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتَهُ سِنِينَا
وآلَمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ ... سُؤالُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الْمُسْلِمُونَا؟

❁ ❁ ❁

• وانظر كيف حمَى الإسلامُ العلمَ، وفضَّل العلماء فجعل «**فضل العالِم على العابِد كفضل القمر على سائر الكواكب**»، وجعل الملائكة وكثيرًا من مخلوقاته يستغفرون

لطالب العلم، (العلوم الشرعيَّة أولًا، ويتبعها المعارف التجريبيَّة، فهما قرينان لا يختلفان)، فإذا اختلف العلمُ الشّرعي عن معارف الدُّنيا كانت التبعيَّة والتخلّف، وإذا اختلفت علوم الدُّنيا عن علوم الدِّين كان الضياع والدمار والخراب للنسل والعرض والعقل والمال، وإهمال الروح والحرمان مِنَ السعادة وراحة البال، وظهور الخُزعبلات والانحرافات في الدِّين كالرهبنة والتبتّل والطُّرُقِ والفِرَقِ تحت ستار التصوف والتشدُّدِ تارة، والانفراط والتسيُّب تارةً أخرىٰ.

انظر كيف مدح اللهُ العلمَ في الكتاب والسُّنَّة، ويكفىٰ وصف النَّبي ﷺ الجهل بالعمىٰ في قوله: { فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ }(١)، ويكفيك أنَّ الأمراء والحكام لا يحسدون أحدًا علىٰ محبَّة الناس لهم كما يحسُدون العلماء.

❁ ❁ ❁

•• شبهة رابعة والردّ عليها:

يقولون: إذا أردنا التقدم والانتفاع بعلوم العصر، فعلينا بفصل الدِّين عن العلم.

• **نقول ـ وبالله التوفيق ـ:** متىٰ كان الإسلام عائقًا عن طلب المعرفة أو واضعًا العراقيل في طريقها؟

إن الإسلام يدعو إلىٰ العلم؛ قال تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

وقال تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن].

فعندما تكون القراءة ببسم الله، يكون كرمُ الله تعالىٰ علىٰ البشريَّة، فلا يتجه

---

(١) أخرجه أبو داود: ك: «الطهارة» ب: «في المجروح يتيمم» ح: «٣٣٦» عن جابر بن عبد الله ﷺ.

العلم إِلَّا إلى المفيد والنّافع والصالح، وانظر إلى القراءة وارتباطها بالغاية مِنَ الخلق، كالخلافة، وتعمير الكون، وحرث الأرض، وإحياء الموات منها، وإقامة التكاليف، والعبوديَّة لله ربِّ العالمين.

• أمَّا عندما تأخّر المسلمون وتفرّقوا، وتكالبوا على الدُّنيا وانقسموا أحزابًا، وانشغلوا بحروب عصبيَّة وطائفيَّة، وتركوا علوم الشّرع التي تحمى علوم الدُّنيا، فتركوا المجال لغيرهم فجدوا واجتهدوا وأحسنوا استغلال أوقاتهم واستثمار أموالهم، وفي الوقت نفسه غيَّبوا وأضلُّوا الدول الإسلاميَّة فاحتلوها، واستغلوا خيراتها، وأذلّوا شعوبها، وأصرّوا ألَّا يتركوها إِلَّا والجهل والمرض والتخلّف يُحِيطُ بها وبشعوبها.

وأصرَّ أعداؤنا على أنْ نكون تبعًا لهم في القوانين والاقتصاد والنظم والتعليم حتى لا يمكن للتابع أنْ يتفوَّق على المتبوع.

واجتهَدُوا في إضلالنا حتى ننشغل بالملاهي والملاعب والنوادي والمقاهي ومحلات النّت كافيه أكثر مِنْ اهتمامنا بالعُلماء والمخترعين والنابغين، وحرصوا كل الحرص على إغراء المتفوقين والمتميّزين في العقول والعلوم ليهاجروا إليهم ويعيشوا في بلادهم وتحت رعايتهم ويتم احتكارهم وإغراؤهم بشتى الوسائل.

• لا يَأسَ ولا قُنوط، لأنَّ الإسلام ما زال صحيحًا بين أيدينا، ولكن المسلمين ما زال لديهم شتَّى وسائل التقدّم والرّقي إن تَمَّ وأرادوا:

١- تصحيح المسار بالعودة إلى الرحمن جلَّ وعلا. قال تعالى: ﴿**قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣**﴾ [طه].

٢- فهم القرآن والسُّنَّة فِهمًا صحيحًا بعيدًا عن التأويلات الفاسدة، أو التيارات الحاقدة.

٣- الحرص على العزَّة والسيادة والعمل مِنْ أجل ترسيخ الهُوية الإسلامية، وتجنب الإِمَّعِيَّة.

٤- توحيد الجهود والمجهود وإعطاء الأولويَّة في الميزانية للعلم والعلماء والبحث العلمي والإعداد، كما أمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾.

٥- إزالة شتى أنواع العقبات التي وضعها الحاقدون لنا، ورصد الجوائز المالية والعالمية للمتميّزين مِنَ العلماء.

٦- التخطيط السليم، والإدارة الجيدة، وخاصة في فنِّ إدارة الوقت والموارد.

٧- الاستفادة مما وصل إليه غيرنا، وترجمته بلغتنا وهُويتنا، والعمل على تحديثه وتطويره، بعد تنقيته وتخليته.

٨- إحياء العقيدة الإسلاميَّة الصحيحة، التي تؤهِّلنا للعزّة والكرامة.

٩- إعادة التربية للأجيال؛ لأنَّه لا تتقدم أُمَّة إِلَّا إذا ربَّت شعبها على أنْ يسود، وأعطت المربي صلاحيات تؤهِّله لإعداد جيل ذي همّة عالية، وإرادة قوية.

١٠- طرد شبح اليأس والاستسلام، والتحرر مِنْ قيود التبعية، والحرص على تبادل المنافع والتعامل بالمثل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران].

❁ ❁ ❁

● عندما كانت القراءة «باسم الله» لم نسمع أنَّ العرب المسلمين وهم في مجدهم وحضاراتهم وسيطرتهم لم يحرصوا على اختراع أجهزة الدّمار الشامل أو ما يضرّ بالبشريَّة، أو يسبب دمارًا وهلاكًا للإنسانية.

فالمعارف إن رعاها الدِّين فإنه يوجِّه دفَّته إلى صالح البشريَّة، ونفع الإنسانية وإِلَّا

فلن تجدي وقتها التكنولوجيا، ولن ينفع وقتها علوم؛ لأنَّ الإنسان وهو محور هذه العلوم سيكون في عالم آخر.

• إنَّ أي حضارة بعيدة عن الدِّين تُدمِّر نفسَها بنفسها، انظر لما تقدَّمت أوروبا في التكنولوجيا وصناعة الآلات والمعدات، كانت أول ثمار هذه الحضارة (حضارة الآلات والجدران) ما يفوق أكثر من ثلاثين مليون قتيل وجريح في الحرب العالمية الأولى والثانية، دمار وخراب وقتل وسحق وقوة وعنف وإبادة وتخلّف، فماذا استفاد الإنسان الأوروبي وقتها؟!؛ لذلك حاولوا بعد هذه الحروب أنْ يكونوا حريصين على بناء الإنسان أكثر مِنْ بناء الآلات والجدران حتى يتسنَّى له الاستفادة بهذه الحضارة، وما وصلوا إليه بعد أربعة عشر قرنًا مِنْ بعثة النَّبي ﷺ.

فقد كانت توجيهات القرآن والسُّنَّة، وتربية النَّبي ﷺ لأصحابه تهتم وتُركِّز على هذه الحقيقة بناء الإنسان المسلم القوي العزيز الأعلى، لا يعرف الحزن ولا الوهن، يفتخر بأنه خير أجناس الأرض، مِنْ خير البريَّة، ومِنْ خير أمّة أُخرجت للناس، وإذا أردت المزيد مِنْ بناء الإسلام للإنسان فاقرأ وادرس سورة « عبس وتولى ».

❁ ❁ ❁

• **وخلاصة القول**: أنَّ الصراع بين العِلْم والدِّين صراع ذاقت فيه دول أُوروبا مرارة حرق العُلماء ومحاربة القساوِسَة والرُّهبان والأمراء له، في الوقت نفسه الذي كان الإسلام يُكرِّم علماءه، ويُعلي قدرهم، ويقدّس مكانتهم، ويوفّر لهم كل السُّبُل مِنَ المسكن والتنقل والأموال، ويحاولون نشر هذه العلوم في شتَّى بقاع العالمين، لا يُفرِّقون ولا يحرِمون منها جنسًا دون آخر، ولا قومًا دون قوم.

فأيَّ سخافةٍ وأيُ حماقة تلك التي يَدَّعيها بعض الراضعين مِنْ ألبان الجهلاء والحاقدين على الإسلام فتكلموا بكلامهم، وسلكوا مسالكهم.

ولا شَكَّ أنَّ قائل هذه العبارة (فَصْلُ الدِّين عَنِ العِلْمِ) والداعي إليها يجهل حقيقة الإسلام وأحكامه، وتعاليم الدِّين وإرشاداته، ولا يدرىٰ تأريخ هذه الأمَّة، ويغفل عن السُّنَن الربَّانية فيها وخصائصها وتميُّزها، فتجده يُفسِّر القرآن حسب هواه، والسُّنَّة وفق مصالحه، يتَّبع سُنن أهل الشّرك شِبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، وقولًا بقولٍ، ولا يَعي مخاطر ما يقول، ويَثق في كلام المستشرقين أكثر مِنْ ثقته ويقينه في كلام ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

• فالإسلام هو الدين الذي جعل العلم والمعارف قرينين لا يفترقان، وحبيبين لا يختلفان، وعاشقين متلاحمين لا يُفصَلُ بينهما إِلَّا إذا توجَّهت المعارف إلىٰ الحرام، وتعدَّت علىٰ حدود الله، فإذا افترقا كان الإسلام هو الأصل، والمعارف هي الفرع، وليس العكس.

ومِنْ رحمة الله تعالىٰ ومنَّته علىٰ أُمتنا أنَّ لديها القدرة، والعقول، والإمكانيات الماديَّة والطبيعية للاستفادة بعلوم العصر في أقل وقت ممكن، وبسرعة أذهلت أصحابها، وجعلتهم في حيرةٍ مِنْ أمرهم.

فعليكم بالمعارف يا أمَّة الإسلام وحصِّنوها بالدِّين، فالعلماء هم أحقُّ الناس بخشية الله ربِّ العالمين.

ولقد مدح الله تعالىٰ العقل في أكثرَ مِنْ مَوضِع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد].

ومدح الله تعالىٰ العلم في أكثر مِنْ موضع، وبيَّن أنه لا ينتفع بآياته إِلَّا قوم يعلمون، وجمع الله تعالىٰ بين العقل والعلم والشّرع في قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت].

❁ ❁ ❁

● والأحاديث النبويَّة في فضل العلم الشرعي وحثِّه على المعارف، ومكانة العقل، ومنزلة العلماء كثيرة جدًّا.

والغرب ما زال يعاني مِنْ ويلات الحضارة والمعارف بعيدًا عن الدِّين الصحيح، وهذه حقيقة لا مراء فيها، فهو يبحث عن حل لمشاكله، ومنقذ لما هو فيه، فقد عانى وقاسى مآسي وويلات حضارته المثيرة السريعة الوتيرة، والتي كالسراب (الذي يحسبه الظمآن ماء) وما زال ينتظر الغد المجهول! بدليل ما قدم في حروبه (العالمية الأولى والثانية) مِنْ قتلى ومصابين، وذلك في أول خطوات التكنولوجيا التي انتهجها وأباح مِنْ أجلها كل الرذائل والمحرّمات.

❁ ❁ ❁

ربما يقول قائل: إنَّ العالِمَ الذي اخترع آشعَّة اللِّيزر وهو على غير دين الإسلام ألم يخدم الإنسانية وينفعها؟!

إنصافًا للحق، وإيضاحًا للحقيقة قبل الاستفاضة في التعليق بما يليق على كلام هذا القائل أنقل كلامًا مُهمًّا للشيخ **عبد الرحمن البدري**[1] حفظه الله يقول: « إنَّ عُمُرَ الإنسان لا يُقاس بالسنين الكثيرة، وعقود الزمن الوفيرة، لكنَّه يُقاس بما قَدَّم للبشريَّة مِنْ خدماتٍ كريمةٍ، أو أعمالٍ عظيمةٍ.

إنَّ الكثير مِنَ الناس يعيشون الأزمنة المتطاولة فإذا ماتوا مات ذِكْرُهُم، واندثر خَبَرُهُم؛ لأنهم لم يُقدِّموا للناس ما به يذكرون، وما لأجلهِ يُشكرون، والعكسُ تمامًا يكونُ عندما يموت إنسانٌ قدَّم خيرًا للبشريَّة، وأسهم في نفع الإنسانية، فهذا الإنسانُ المتفوِّقُ إذا مات فارق الناس بجسده، ولم يُفارِقْهُم بعمله.

إنَّ حياة المرء محسوبةٌ له إنْ أفاد، وبَرَعَ في العمل وأجادَ، وحقَّق الآمال

---

(١) كتاب «مناقِب الصحابة»: (١/ ٢٩) ب: «مناقِب أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها».

والأمجاد، فإن عاش ومات دون أنْ يُفيد ويُحسن ويجيد فَبِئسَ هو وبئسَتْ حياته، لقد شَغَلَ في فترة حياته حيزًا مِنَ الأرض ولم يُرَ في يوم مؤدّيًا لمستحب أو سُنَّةٍ أو فَرْض، إننا لا نتحدث عن هؤلاء الذين قبلوا السلبية ورضوا بالضّعة، ولم يَضعوا عمرهم موضعه، نحن لا نتحدث عنهم لأنهم لم ينفعوا أحدًا، فَلنْ نضيِّعَ أوقاتِنا بالحديث عنهم سُدًى، إننا نتحدث عن أصحاب الهِمم العالية الذين يحبون معالي الأمور وأشرافها، ويُبغضون دنيَّها وسَفاسفَها، ومِنْ أحسن ما قيل:

إذا أنت لَمْ تَعْرِف لِنَفْسِكَ حَقَّهَا ... هَوانًا بها كانَتْ عَلى النَّاسِ أهوَنا

فَنفْسُكَ أكْرِمْهَا وإنْ ضَاقَ مَسْكَنٌ ... عَليكَ لها فاطلُبْ لنفسِكَ

وإيَّاكَ والسُّكْنَى بِمَنزِلِ ذلَّةٍ ... يُعَدُّ مُسيئًا فيه مَنْ كَانَ مُحسنا

وبعد هذا الكلام الرقيق أقول، وبالله التوفيق:

أولا: سُنَن الله تعالى في تعامله مع المسلمين مختلفة عن سُنَنه مع الكافرين؛ فالدُّنيا جنَّةُ الكافر؛ قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

وفي الحديث: قول النَّبي ﷺ لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه لما رأى وسادة رسول الله ﷺ والحصير الذي ينام عليه، وقد أثَّر في جنبه الشريف: { أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ

الخَطَّابِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا }(١)، وفي رواية: فَقَالَ: {مَا يُبْكِيكَ؟} فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: { أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنيا وَلَنَا الآخِرَةُ }(٢).

وقد بيَّن الله سبحانه حال أهل النار وما كانوا عليه في الدُّنيا.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا بَعَثَ بِهِ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: { إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ }(٣).

ثانيًا: الذي اخترع الليزر هو إمَّا أنْ يكون مُسلمًا أو يكون كافرًا (ولا ثالث لهما)؛ فإنْ كان كافرًا فهذا هو أهم السُّبل لتحقيق ذاته وطموحه وتخليد ذكراه، وسبيله إلى الرفاهية والتَّرف، وطريق تميّزه بعد أنْ فقد التميّز بالدِّين الصحيح، والله سبحانه لن يبخسه حقّه بل سوف يوفيه إيّاه في الدُّنيا مِنْ مال وشُهرة وشَهوة؛ لأنَّ الله ﷻ لا يُضيع أجر مَنْ أحسن عملًا. قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء]. فكلُّ مَنْ أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس يوفِّيه الله تعالى أجره في الدُّنيا مِنْ مال وجمال وصحة وشهوات، ولا أجر في الآخرة إلَّا لمن كان يفعل ذلك إخلاصًا لله ﷻ.

• وهل العالِم الذي اخترع ونفع الناس ومات وهو على الكُفْر هل سيدخل الجنَّة بهذا الاختراع؟! وإنْ كان مُسلمًا هل يجب أنْ يكون اختراعه محفوفًا باسم

---

(١) أخرجه البخاري، ك: «المظالم والغصب»، ب: «الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة»، ح: «٢٤٦٨»، ومسلم: ك: «الطلاق» ب: «في الإيلاء واعتزال النساء» ح: «١٤٧٩» عن ابن عباس ﷺ

٢) أخرجها البخاري، ك: تفسير القرآن الكريم، ب: (تبتغي مرضاة أزواجك)، ح: «٤٩١٣»، وبنحوها عند مسلم، ح: «١٤٧٩».

(٣) أخرجه أحمد، ح: «٢٢١٠٥».

الله؟ لأنَّ الله ﷻ أمرهُ وكلَّفهُ به في قوله تعالىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، والكافر ليس مكلَّفًا بهذا، وفي ذلك حمايته مِنَ العُجْبِ والغرور والكِبْرِ، وتلك أمراض تصاحب عادةً المشاهيرَ والعلماء، وهي صفات تمحق البركة.

كما أنَّ القراءة باسم الله تحميه مِنَ المعاصي وتدعوه إلىٰ التواضع والتَّواصل لنفع الناس، وتساعده علىٰ التطوير والتحسين والرُّقي بعمله واختراعه، وهو يحتسب بذلك الأجرَ عند الله تعالىٰ ثوابًا وطمعًا في رضوانه وجنّته، وذلك بخلاف المخترع الكافر الذي يبتغي بعمله الدُّنيا أو المال أو الشُّهرة أو المركز. وكلاهما مخترع ونافع للناس.

ثالثا: النَّبيُّ ﷺ علَّمَنا بأنَّ مَنْ أراد أنْ ينفع أخاه فلينفعه، وهذه قاعدة نبويَّة عظيمة مِنَ الحرص علىٰ كل ما ينفع الناس، فلا شَكَّ في التقصير الذي حَلَّ بالمسلمين لما تركوا مجالات البحث العلمي لغيرهم، وانشغلوا بتوافه الأمور وسفاسفها.

رابعًا: الذين تعلَّموا العلم بعيدًا عن بسم الله ماذا قدَّموا للإنسانيَّة؟ قدَّموا ثلاثين مليون قتيل في الحرب العالمية الأولىٰ والثانية، هذا غير الجرحىٰ والمشوَّهين وهلاك المدن والحرث والنسل.

قدَّموا للإنسانية حضارة، وفي نفس الوقت قدَّموا لها ما يُدمِّرها ويجعلها خرابًا؛ مِنْ أسلحة جُرثُوميَّة وبيولوجيَّة وكيميائيَّة ونوويَّة وغيرها، هذا بجانب إباحتهم للفواحش وكبائر الذنوب مِنَ الرِّبا وفعل قوم لوط، والسِّحاق، وشُرب الخمور، وأكل أموال الناس بالباطل مما يُعرِّضهم لأسباب الهلاك والتي أهلك الله تعالىٰ بها أكثر مِنْ أربعة عشر أمَّة وقرية ورد ذِكْرها في القرآن الكريم.

في حين أنَّ أُمة الإسلام عندما كانت تقرأ باسم الله قدَّمت للإنسانية العلوم النافعة وأُسس البحث العلمي.

خامسًا: لما انعزل الدِّين عن التعليم في بلاد المسلمين تخرج الملايين مِنَ المتعلمين بعلوم الدُّنيا، ومع هذا ظلَّت بلادهم حتىٰ اليوم في ذيل القائمة، حتىٰ أطلقوا عليها البلاد المتخلِّفة أو النامية، ورأينا كثيرًا منهم قد انسلخ مِنْ هُوِيَّته ودينه، وخرجت علينا فرقٌ مِنَ الملَاحِدة والعلمانيين والحَدَاثيِّين وكثير مِنَ المنافقين وأعداء الدِّين.

سادسًا: وصف الله تعالىٰ العلم بأنه سلاح ذو حدَّين «**مفيدٌ وضارٌّ**»؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٤].

والحماية مِنْ هذا البغي بجعل العلم موجهًا ومحاطًا بـاسم الله كما أمر.

سابعًا: كل نصوص القرآن والسُّنَّة تحثُّ علىٰ طلب العلم الشّرعي أولًا؛ لأنَّ به نجاة العبد وسلامته مِنَ الآفات والآثام في الدُّنيا والآخرة، وهي في نفس الوقت لا يوجد فيها نصٌّ يُحرِّم طلب علوم العصر؛ بل قد يدخل الأمر بتعلّمها ضمنًا وتابعًا لها.

قال تعالىٰ علىٰ لسان نبيِّه سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢﴾ [النمل]. وقال ﷺ: { **طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ** }(١).

والمقصود به: عِلْم التوحيد والفقه والحلال والحرام، هذا هو العلم: «**فرضُ عين على كل مسلم**»، وما عدا ذلك مِنَ العلوم فرض كفاية؛ إنْ قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة].

---

١) أخرجه ابن ماجه: ك: «الإيمان وفضائل الصحابة والعلم» ب: «فضل العلم والحثّ على طلب العلم» ح: «٢٢٤» مِنْ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

حتىٰ قوله تعالىٰ في آيات البحث عن المعادن وكنوز الأرض في سورة فاطر قال في ختامها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لأنَّ العلم المحمود مِنَ الله تعالىٰ هو كل علم يوصل صاحبه إلىٰ خشية الله ﷻ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: « لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ إِنَّمَا الْعِلْمُ الْخَشْيَةُ »(١).

ثامنًا: يقول النَّبيُّ ﷺ: { إنا أمَّةٌ أُميَّةٌ }(٢)، ثم تلَا قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

وهذا مِنَ الإعجاز؛ فهذه الأمَّة الأميَّة لما نزل عليهم الكتاب والحكمة زكَّاهم الله بهما فعلَّموا الدُّنيا كلَّها، وصاروا قادَةً في الفِهم والفِكر والبحث والعلم والعدل والحكم والرّيادة والسّيادة، فلما تركوا ما زكَّاهم الله به تأخَّروا وغلبتهم أمم الكفر، وما ذلك إلَّا لفصلهم الإسلام عن العلم والحياة حتىٰ حجزوه في بوتقة الأخلاق وبين جدران المساجد.

تاسعًا: ربط الله ﷻ النَّماء والفلاح والتقدُّم والازدهار والرّقي لهذه الأمَّة بالإيمان والتّقوىٰ أولًا، ثم بالمخترعات والتكنولوجيا، وليس العكس.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران]؛ فاشترط للعُلوِّ علىٰ الكافرين الإيمانَ أولًا.

فإذا اجتمع الإيمان مع العلم الحديث في رجل، فنِعْمَ العلم النافع مع الرجل الصالح، وإنْ اختلفا وتفرَّقا قد يكون نافعًا للإنسانية فقط، ولكنه لا يُحقِّق عُلوًّا

---

١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان البستي، ص (٣٨).

٢) أخرجه البخاري: ك: «الصوم» ب: «قول النَّبي: «لا نكتب ولا نحسب» ح: «١٩١٣»، ومسلم: ك: «الصيام»، ب: «وجوب صوم رمضان»، ح: «١٠٨٠» مِنْ حديث ابن عمر ﷺ.

ولا تقدُّمًا للمؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

• فالإيمان والتقوى هما صمام الأمان لهذه الأمَّة، وهما الحماية لها مِنْ طغيان العلوم الدنيويَّة أو الانحراف بها، وهما الطريق لتنمية الضمير الربَّانيّ لعلاج أمراضنا ومشاكلنا.

وهنا نودُّ أن نوضِّح أمرًا يُفَرِّقُ بيننا وبينهم مِنْ حيث المهمةُ المكلَّف بها كل منَّا، فمهمَّتُنا أولًا هداية الناس، وتبليغهم دين الله، وإنذارهم عذابه، وتبشيرهم برحمته وجنته، وهذا يؤدي إلى إصلاح الدُّنيا والدِّينِ.

أمَّا هُم فسبقهم بعلومهم المادية، فلا تكليف لهم مثلنا، وأصبح جُلُّ همّهم السَّعي إلى علوّهم بعلوم الدُّنيا، وأصبح دينهم «المادية»، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

عاشرًا: التقدّم العلمي في الدول غير الإسلامية كان بصحبته تقدم هائل في الجرأة على الله تعالى وعلى دينه تتمثل في: (انحلال الأخلاق - الشذوذ - الحرية والإباحية - الأفكار التقدميَّة والوَحْدَوية والشيوعيَّة والفكريَّة ..)؛ وهذا مما قد يُعجّل بسخط الله تعالى وتدمير القرى بعد أنْ تأخذ زُخرفَها وزينتَهَا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ [الإسراء]؛ لذلك فإن كلًّا من الغرب والشرق حريص كل الحرص على تقديم تكنولوجيا للمسلمين: **أولًا**: متأخرة، **وثانيًا**: محفوفة ومشروطة ومصحوبة بعزل الدِّين الإسلامي وَقِيَمِه، **وثالثًا**: بغرض العولمة والتبعيَّة والإباحيَّة والشذوذ.

ومِنْ سُنن الله تعالى لهذه الأمَّة؛ أنَّ تقدُّمها وازدهارها مرتبط بنجاحها في إقامة

الدِّين ودعوة الناس جميعًا إليه، فإذا نجحت في ذلك ازدهرت في الصناعة والزراعة والتجارة والعلوم، وإذا أهملته فلن تفلح في أي مجال.

وأقرب مثال على ذلك: دولة تركيا عندما كانت مقرًّا للخلافة الإسلامية، وتحكم العالم ببقايا مِنَ الإسلام كانت تُصدِّر العلماء والأمراء والقادة، فلما سقطت الخلافة وحلَّت محلها القوميَّة والعلمانيَّة صارت تُصدِّر للعالم العمال والطهاة والسائقين والخدم.

• **إنَّ عوامل النهضة مكنونة في هذه الأمَّة المباركة، فهي مليئة بالخيرات والخبرات والثروات؛ ولكنها مشتَّتة ومبعثرة وتخضع للتبعية فيديرها أعداؤها، في حين أنَّ أعداءها يبحثون عن مُنقذٍ لهم، وعن حلٍّ لمشاكلهم المعقدة، وينتظروننا ويتطلعون للحلول عندنا، ونحن نلهث وراءهم حتى استَورَدَنَا منهم رذائلهم واستوردوا منَّا فضائلنا.**

ولا شَكَّ في أنَّ الإسلام أجاز التعاون العلمي والتعامل التجاري بين المسلمين وغيرهم، بشرط أَلَّا يكونوا محاربين لنا يعملون على قتالنا في الدِّين، وإخراجنا مِنْ ديارنا، بل أمرنا بالبرِّ لهم والقسط معهم إذا كانوا غير محاربين.

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

وأنا أدعوك إلى التأمُّل في سيرة الصحابة والخلفاء مِنْ بعدهم، وكيف دانت لهم الدُّنيا، وَبِمَ دانت؟! وكيف سادوا وَعَزُّوا، وهل ما كان لديهم مِنْ إمكانيات وعقائد ومناهج بعيدة المنال عنّا اليوم حتى نرتقي كما ارتقَوْا ونسودُ كما سادُوا؟!

•• شبهة خامسة والردّ عليها

الغايَةُ تُبَرِّرُ الوَسيلَةَ، فالغرب طالما وجدَنَا متمسِّكين بالإسلام فلن يتعاون معنا ولن يهتم بنا، فماذا نفعل؟.

• **نقول -وبالله التوفيق-**: إنَّ الأصل ما أخبرنا به العليم الخبير بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].

فالأصل التمسُّك بالدِّين والاعتزاز به، وهم على كل حال حاجتهم إلينا أشدُّ وأكثر مِنْ حاجتنا نحن إليهم.

• ونحن نتساءل **هل التخلي عن الإسلام هو الحل؟ وإذا كان الغرب يبحث عن حلول لمشاكله لدينا، فهل انعكست القضية؟ وهل اعتمادنا الأول على الله ﷻ وتوفيقه أم على الغرب؟ وكيف وصلت الأمّة إلى عزّها ومجدّها في وقت كان الغرب في ظلام دامس، ودياجير مِنَ التخلف ؟**

إذا كانت النيَّة سليمة فيجب أنْ تكون الوسيلة والغاية كذلك، والوسيلة السيّئة لا توصل إلَّا إلى غاية مبتورة إنْ وصل إليها أصلًا، وكلما كانت الوسيلة صحيحة كان الوصول إلى الغاية الصحيحة أسرع وأوفر في الجهد والوقت، وأسلم مِنَ المعَايِب والعقبات.

والغرب يحتاج إلينا أكثر مما نحتاج نحن إليه، وهذه حقيقة لا مِراء فيها، فهو يبحث عن حلٍّ لمشاكله، ومُنقذٍ لما هو فيه، فقد عانَى ويلات حضارته المثيرة، وما زال ينتظر الغد المجهول التي سببته لهم، فأغرقتهم في الشَّهَوات، وأهلكتهم في الماديّات، وحرمتهم حقيقة الحياة ولذّتها وراحة البال، وأدَّت إلى شتاتٍ في الأسر، وفرَّقت بين الابن وأبيه، فَقُطِعَتُ الأرحام، وعاثوا في الأرض فسادًا، وصارت قلوبهم كالحجارة

أو أشدَّ قسوة، وأكثر مِنْ ذلك كله أنهم فقدوا الأمان والأمن النَّفسي.

• والأمل الوحيد لديهم أنْ يعود المسلمين لدينهم، ويُحقِّقوه على أرض الواقع ليكونوا نماذج حقيقية صالحة لهذه الحقيقة. ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر].

ولو نجح المسلمون في تصدير واقع صحيح للإسلام إلى الغرب، كما يصدر هو لنا مساوئه لدخل الكثير في دين الله ﷻ مِنْ علماء وعباقرة ومفكِّرين، وأضافوا لنا ما كنا في حاجة إليه.

وعلينا أنْ نوازن بين أيهما أفضل: أنْ نصدِّر للغرب الوحي الصحيح الذي يحقِّق لهم السعادة الأبدية في الدُّنيا والآخرة، أو بين أنْ نستورد منهم المادية والقاذورات التي عندهم؟

❁ ❁ ❁

• والعالِم في تعاملاته تحكُمُه قاعدة (تبادل المنافع والمصالح)، والله تعالى يقول: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥]. ويقول: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

فأباح الله تعالى طعامَهم، ونكاحَ نِسائهم المُحصَنات (العفيفات)، وبِرَّهم والقسط إليهم، وأحلَّ التجارةَ معهم، وحرّم الله تعالى موالاتهم، والتشبُّه بهم، والرِّضا عن ما لديهم مِنْ كُفْرٍ وشقاق، فالميزان ميزان عدل إذا اختل لدينا احتل الباطلُ نفوسَنا وبيوتَنا وأرضَنا؛ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

❁ ❁ ❁

والواقع اليوم يحكمه علاقات تجارية واسعة، وتبادل تجاري ومصالح، مما يجعل هذه الأفكار نوعًا مِنَ الهراء والخداع. وإلَّا كيف يتحقَّق ذلك ونحن ثلث سكان الأرض؟ ولدينا أكبر مخزون مِنَ الخامات والمعادن، وجميع أنواع الزراعات والخيرات والخبرات، ولسنا عجزة أو ضعفاء أو فاقدين لأسباب التقدّم كلَّا وألف كلَّا. فالحمد لله أكثر مِنْ ٧٥٪ مِنَ التكنولوجيا المتطورة لدينا، ومِنَ السهل واليسير تكملة الباقي لو منَّ الله تعالىٰ علينا بتغيير في سياستنا وطُرق التفكير، وإزالة كافة العقبات والأفكار التي ترسَّخَت في عقول الناس بسبب التأميم تارة، والحكم الفردي تارة أخرىٰ، والاستبداد تارة أخرىٰ والفوضى الماديَّة والأخلاقيَّة، وعدم استقرار الأمن، وكثرة السرقات للأموال العامَّة، وكثرة الرّشوة والفساد، وتجويع الشعوب المسلمة، وإذلالها بالفقر والحاجة عن طريق غلاء الأسعار العشوائي، والمبالغة في أسعار الخدمات الأساسية، تمامًا كما خطَط لنا حُكماء صهيون في بروتوكولاتهم (١).

❁ ❁ ❁

• إنَّ حجم هذه المشاكل أفقدنا ما كان يمكننا به أنْ نتغير ونتقدم، ناهيك عن البخل الإداري والسياسي علىٰ العلماء والمخترعين.

إنَّ طريقة التعليم في بلادنا مِنْ أسباب تأخرنا، ويا ليت قومي يُغيِّرون مناهج وطرق التدريس بما يوافق معتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا، لا كما يوافق أهواء الغرب والشرق، وعلىٰ الذين يُثيرون هذه الشُّبُهات أنْ يتوجَّهوا إلىٰ المرض فيستأصلوه، وإلىٰ الجرح فيداووه؛ لأنهم بمكرهم هذا لا يمكرون إلَّا بأنفسهم، ولن يستطيعوا الوصول إلىٰ مآربهم.

---

(١) راجع الدراسات عن هذه البروتوكولات في ترجمتها، ومِنْ أبرزها: «بروتوكولات حُكماء صهيون» لعجاج نويهض، ولمحمد خليفة التونسي، ولشوقي عبد الناصر.

وقفة
مع بروتوكولات حُكماء صهيون

• [يتحتم علينا أنْ ننتزع فكرة «الله» مِنْ عقول الناس، وأنْ نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية]. «البروتوكول الرابع»

• [حينما نُمكِّن لأنفسنا فنكون سادة الأرض، لن نُبيحَ قيام أي دين غير ديننا، ولهذا السبب يجب علينا أنْ نُحطِّم كل عقائد الإيمان؛ حتى تكون النتيجة المؤكدة لهذا هي إثمارَ ملحدين، ويجب إخضاعُ كلِّ الأمم تحت أقدامنا].

«البروتوكول الرابع عشر»

• [وقد عُنينا عنايةً عظيمة بالحطِّ مِنْ كرامة رجال الدِّين مِنَ الأمميِّين (غير اليهود) في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أنْ تكون عقبة كئودًا في طريقنا، وإنَّ نفوذ رجال الدِّين على الناس ليتضاءل يومًا فيومًا].

«البروتوكول السابع عشر»

• [إنَّ السياسة لا تتَّفق مع الأخلاق في شيء والحاكم المُقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وكنا قديمًا أول مَنْ صاح في الناس (الحرية والمساواة والإخاء) كلمات ما انفكت تُرَدِدُهَا منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة مُتجمهرة مِنْ كل مكان حول هذه الشعارات وقد حرمت - بترددها - العالم مِنْ نجاحه، وحرمت الفرد مِنْ حريته الشخصية]. «البروتوكول الأول»

• [سوف نعهد بالمناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم كي تقف مخازيهم فاصلًا بين الأمة وبينهم]. «البروتوكول الثامن»

• [إنَّ الصراع مِنْ أجل التفوق والمضاربة في عالم الأعمال ستخلقان مُجتمعًا أنانيًا غليظ القلب، مُنحل الأخلاق، هذا المجتمع سيصير مُنحلًا كل الانحلال ومُبغضًا أيضًا مِنَ الدِّين والسياسة]. «البروتوكول الرابع»

• [إنَّ الحاجة يوميًا إلى الخبر ستُكره الأُميين على الدوام أنْ يقبضوا ألسنتهم ويظلوا خدمنا الأذلاء]. «البروتوكول الثالث عشر»

وأقترح في ذلك ما يلي:

١- التقييم الشامل لمشاكلنا، وحصرها.

٢- وضع خطة زمنية علميَّة وفق جدول زمني، ومتابعة التنفيذ.

٣- مراجعة كافة السياسات والقوانين التي تُعرقل حركة بناء الإنسان من قَبل ما يحتاج إليه مِنْ تكنولوجيا وعلوم.

٤- الاهتمام بالجانب العلمي والأبحاث، أكثر مِنَ الاهتمام بالجانب النظري وحشو المعلومات، والحرص على التخصُّص، والاهتمام بترجمة العلوم النافعة إلى لغتنا العربية، وإرسال البعثات العلمية في كل أنحاء المعمورة مع المحافظة على عقيدتهم وحمايتهم مِنَ الشُّبُهات والشَّهَوات (بأنْ يكون لديهم إيمان يحميهم الله تعالى به من الشَّهَوات المحرَّمة، وأنْ يكون لديهم علم يحفظهم الله تعالى به مِنَ الشُّبُهات).

٥- دراسة الإمكانيات والاحتياجات وجدولتها وتوجيهها حسب المصالح.

٦- عمل خطة لإعداد المدرس والمدرب الجيد، فبدون ذلك لن تتم الاستفادة، والربط الجيد بين العلم والعقل، والعلم والشَّرع، والحرص كل الحرص على التربية الإيمانيَّة فهي طريق عزّتنا، ولا سبيل لنا غير ذلك.

٧- توجيه الطاقات والجهود والأوقات فيما يعود بالنفع.

٨- محاربة الروتين والمحسوبية والرشوة، فهما السرطان الذي يصيب الأمم والشعوب في تقدمها، والأخذ بيد مِنْ حديد على المستهترين بمصالح الأمة وشعوبها، ولن يكون ذلك إلَّا بإقامة حدود الله ﷻ.

٩- مسايرة حركة التطور السريع، والعمل على إنجاز الحكومة الإلكتُرونيَّة مما يختصر ويوفِّر كثيرًا منَ الجهد والوقت.

١٠- محاسبة النَّفس قبل محاسبة الكبير والصغير، ليتحقق مبدأ الإسلام

العظيم، **مِنْ أين لك هذا؟**، «**وهلا جلست في بيت أبيك، أكان يأتيك هذا**»؟.

١١- رفع كل القيود والقوانين التي تُعرقل بناء الإنسان الذي إذا تحقق بناؤه قامت الحضارات، واستفاد بتكنولوجيا العصر دون مخاطر أو أزمات، فقضيتنا الأساسية هي قضية بناء إنسان مسلم صالح، حُرمته وحُرمة ماله ودمه ومسكنه وأمنه أشدُّ عند الله تعالىٰ مِنْ حُرمة المسجد الحرام.

• أمَّا أنْ نطالب إنسانًا بالإبداع والعمل وبذلك الجهد والتطور، وقد أحطناه بالخوف والفقر والذلّ والقهر، وشغلناه ليل نهر في كسب قوته وقوت أولاده بسبب ما قدمناه له مِنْ غلوّ فاحش في الخدمات الأساسية، وغلوّ مُصطنع في احتياجاته الأساسية مِنْ مسكن ومشرب ومأكل وتعليم.

قضيتنا هي بناء الإنسان كما بناه الإسلام وحقّقه نبيُّ الإسلام ﷺ في أول مجتمع عرفته الإنسانية مجتمعًا عزيزًا، قويًا، متماسكًا، مترابطًا نافعًا له ولكل الأمم مِنْ حوله.

❁ ❁ ❁

• إنها مبادئ راقية، وأُسس واعية، وقواعد سليمة عندما طبقها المسلمون سادوا وعزَّوا. نحن لا نريد أنْ نعيش أماني وأحلامًا وآمالًا، فالأماني قد غرَّتْ أُناسًا حتىٰ اكتشفوا الحقيقة؛ ولكن بعد أن صاروا في جهنَّم، والأحلام لا تُحقق تقدّمًا أو تُصلح معوَجًّا أو تُقَوِّمُ أخطاءً، والآمال إنْ لم يعقبُها عَمَلٌ وسعيٌ نحوها وجهدٌ مبذول مدروس فلا قيمة لها، والأمل الصحيح يكون عند أعلىٰ نقطة في منحنىٰ العمل.

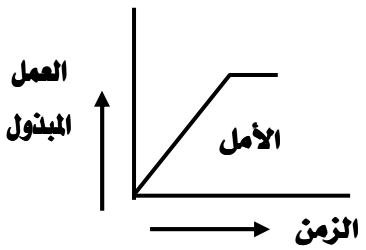

• إننا نريد أنْ نعيش واقعًا بعيدًا عن السَّراب، نعرِف ما لنا وما علينا، ويجيد كلٌ دوره حسب جهده وفكره ووقته وإمكانياته.

نريد أنْ نتعلم فنَّ وصناعة «**استثمار الإنسان العربي والمسلم**»، ونرفع القيود والأغلال المحيطة بعقله وفكره وماله، ونحقق له الأمان والمناخ المناسب للبحث العلمي والاستثمار الأمْثَل لمكوناته وإمكانياته في إطار من الرقابة الربَّانية لإحياء الضمير الربَّانيّ، بديلًا عن ضمير الإنسان الذي أباح لنفسه أي شيء، وتعلَّل بأي حُجَّة، قبل رقابة الأجهزة والسلطات على الناس.

• نريد بناء الذَّات وترسيخ الهويَّة الإسلامية؛ لأنَّ المرء بدون هُوِيَّة لا يُحترَم ويكون إمَّعَة، والإمعية تقليد مذموم للقادة والآباء والمشهورين دون رَوِيَّة أو تفكير أو تدبُّر في عواقب الأمور، فإنْ أحسنوا أحسن مثلهم، وإنْ أساءوا أساء كما أساءوا، يُردِّد أقوالهم، ويتشبّه بهم، ويحذو حذوهم حتى ولو كان فيه هلاكه وهلاكهم.

وهذا التقليد مذموم في الكتاب والسُّنَّة، إلَّا أنْ يُوَطِّنَ الإنسانُ نفسَه إنْ أحْسَنَ الناس أحْسَنْ، وإنْ أساءوا اجتنب إساءتهم.

• هذا التوطين للذات المسلمة هو مِنْ أهم أسباب حمايتها مِنَ الانحِراف والضياع والمسخ والزوال، ومِنْ أهم أسباب احترام غيرنا لنا ومهابتهم منَّا، ومِنْ أهم أسباب التقدُّم والتعامل بالمثل، ونحن أعزَّة، قال تعالى: ﴿**وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. فقد اشترط الله ﷻ في العزّة والعلوّ شرط الإيمان، وهذه حقيقة وإنْ أنكرَها المنكرون، أو غَفَل عنها المغرضون، وهي ساطعة كنور الشمس، وضوء القمر ليلة البدر.

إن هذه الأمَّة المسلمة لا ترقى عن طريق هدي غيرها، أو التماس النجدة والإصلاح لديهم، أو الأخذ بأسباب الدُّنيا بعيدة عن أسباب الدِّين.

• **فالأساس الأول لرُقِيّها هو**: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأنه بالإيمان يستقيم العقل، وبالإيمان ننتفع بالعلم، وبالإيمان يُتقَنُ العملُ برقابة الله ﷻ، وبالإيمان تقوم الحياة الطيبة والأخلاق الكريمة والمعاشرة بالمعروف، وبالإيمان يسود العدل وينحصر الظلم، وبالإيمان تَقِلُّ الجرائم ويشعر الناس بالأمن والأمان.

• **والأساس الثاني**: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ نطرد الوهن والحزن بعيدًا عن واقعنا ونستبدله بالعمل والحركة وبذل الجهد لنيل هذه العزَّة وذاك العلوّ.

والله ﷻ وعدنا بالسبق والعلوّ والعزَّة والمعيَّة والخيريَّة والنصرة والتأييد بملائكته، وجعل الواحد منا بعشرة تارة، وأخرىٰ باثنين كل ذلك بشرطين:

الأول: الإعداد بما في أيدينا مِنْ أسباب الغلبة والتفوُّق، قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والثاني: تحقيق الإيمان بالله ﷻ، وصونه مِنَ التبديل، قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

والله سبحانه الذي حمَّلنا الأمانة والمسئولية بعد الأنبياء والمرسلين، علَّمنا وأرشدنا وطلب منَّا أنْ نكون علىٰ يقين مِنْ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال]، هذه الآية تلتها مباشرةً آية الإعداد ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال:٦٠]، فالسبق والغلبة الظاهرة اليوم ليست بسبب أنهم أحقُّ بها أو أهلٌ لها، لا، ولكنها بسببنا نحن يوم أنْ تخلىٰ المسلمون عن واجباتهم مِنَ الإعداد الجيد، والإيمان بالله ﷻ، وعدم التبديل لدينه وسُنَّة نبيّه والشريعة الإسلامية الراقية والواقية.

وأحب أن أصوغ هذه المعادلة كما يلي:

الطرف الأول من المعادلة: تكنولوجيا الغرب وتقدُّمه الهائل، يرافقه ويلازمه تكنولوجيا الفواحش واستحلال المحرَّمات (تكنولوجيا الانحطاط).

الطرف الثاني من المعادلة: الإعداد عند المسلم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ يرافقه ويلازمه الإيمان بالله تعالى من غير تبديل أو تحريف أو كتمان.

• ومن المُرجِّحات لهذه المعادلة، والتي تجعل النصر والتمكين لأهل الإيمان: معيَّة الله للمؤمنين، ونصره إياهم، وتوفيقه لهم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، ﴿اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

وبسبب تكنولوجيا الانحطاط تنحَلُّ القواعد لديهم حتى يَخِرَّ عليهم السقف من فوقهم، قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل].

• إذن هذه هي معادلة الخروج مِنَ الأزمة التي تحياها الأمَّة المسلمة اليوم، وسبب أزمتها أنها بدأت تُشارك الغرب في تكنولوجيا الانحطاط، وتستبدل شرع الرحمن، بل والأدهى والأمر هو عداوتها للإسلام ذاته ووضع القيود عليه، والتبجُّح بإعلان العلمانية تارة، والمدنية تارةً أخرى، وكل ذلك على حساب دولة الإسلام، فأخذت في التخبُّط هنا وهناك، واستنجدت في الخروج من أزمتها بأشدِّ الناس عداوةً لها.

ومِنْ سُنَّة الله سبحانه وتعالى أنه جعل وأودع في هذه الأمَّة، بل في كل دولة منها أسباب عزّتها وتقدّمها وسيادتها، ولكنها عندما تغفل عن ذلك تُصاب بالعمَى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة].

الوجه الثالث: بين المصالح والشرع :

أولا: ما هي المصالح ؟

ثانيًا: منْ أحق وأعلم بمصلحة الإنسان؟ أليس هو خالقه ورازقه ومربِّيه وأرحم به من غيره، وهو أحكم الحاكمين؟، فهل يعقل أنَّ اللهَ يخلق إنسانًا ﷻ وينساه، أو يخلقه ولا يبيِّن له طريق سعادته وفلاحه، ولا يدعوه إلى ذلك؟ أو يخلقه ويتركه هملا؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

• إنَّ كثيرًا مِنَ الناس لا يعرفون مصلحتهم، فالذي يشرب الدخان، ويحتسي الخمر، ويتعاطَىٰ المخدِّرات والهيروين والبودرة، **هل يعلم مصلحته؟**

والذي يعمل ليلَّ نهار ويكدح ويبتكر، ثم يعود في المساء ليسجد أمامَ صنمٍ أو نار، **هل يعلم مصلحته؟**

والذي يظلِم الناس ويتكبَّر عليهم، ويأكل أموالهم بالباطل، ويعتدي عليهم ويسخر منهم، **هل يعرف مصلحة نفسه؟**

هل مَنْ يمارس الزِّنا وفاحشة قوم لوط ويأكل الخنزير، (فيُصاب بالبلادة وعدم الغيرة أو بالدودة الشريطية أو أنفلونزا الطيور)[1]، **هل يعرف مصلحة نفسه؟**

هل مَنْ ضيع وقته هدرًا أو أمضىٰ عمره شذرًا **يعرف مصلحة نفسه؟**

هل مَنْ سار علىٰ درب الشيطان وأطاعه واتبع هواه وشحّ بما عنده مِنْ مال أو علم **يعرف مصلحة نفسه؟**

• إنَّ الله ﷻ خلق الإنسان وهو أعلم به، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ

---

(١) ثبت أنَّ هذا الفيروس ينتقل إلى الإنسان عبر الخنازير.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فَمنْ غَيرُ الله ﷻ الخالق والعليم والخبير والمالك والرحيم والقويّ الجبَّار **يعلم مصالح الخلق والعباد؟**

في دنيا الناس مَنْ يخترع آلة أو جهاز، ويريد أنْ ينتفع بها الناس فلا بُدَّ له مِنْ عمل دليل(كتالوج) معه، به طريقة الاستعمال، ومعالجة العيوب، ويُنشيء له مركزًا للصيانة والإصلاح بالقرب مِنْ أماكن التسويق.

إذا كان هذا في حال البشر، فلله تعالى المثل الأعلى: خَلَقَ الإنسان وصنعه لنفسه، قال تعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

وأنزل معه الدليل لما أهبطه إلى الأرض: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]. ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، والأدلَّة هي الرُّسُل، وجعل مع كل رسول كتابًا يحتوي على ما ينفعه ويحذره ممَّا يضرّه، وفتح له مراكز الرعاية والصيانة، فجعل بيوته في الأرض المساجد ومدح عُمَّارُها وزوارها، وجعل فيها مجالس العلم والإصلاح والتوجيه والإرشاد.

وجعل أوقات العبادة فيها متفرّقة خمس مرات على مدار الليل والنهار، ليمكِّنَ الإنسان مِنَ التوازن المطلوب بين عبادة ربه وقضاء مصالحه.

❁ ❁ ❁

• إنَّ حديث بعض الناس أنَّ مصالحهم الماديَّة بعيدةٌ عن الدِّين وَهْمٌ وَكَذِبٌ،

وادعاؤهم الإصلاح والتغيير بعيدًا عن الدِّين تخبُّط وتشتُّت وضياع للأوقات والجهود، وتصوُّرهم أنَّ في الدِّين والالتزام به عرقلة لمصالحهم وتقدُّمِهم سرابٌ بِقِيْعَةٍ.

• الدِّين لا يُعرقِل إِلَّا المصالح الفاسدة، والأوهام الكاذبة، والشَّهَوات التي تسبِّب التَّشَرْذُم والأمراض.

• الدِّين يُريدك نافعًا منتفعًا، يَسْلَمُ الناسُ مِنْ لسانك ويدك.

• الدِّين يُريدك أنْ تُتقِن عملك، فالله ﷻ ينظر إليك، ويُحب مَنْ يُتقن عمله ويجعله صوابًا نافعًا حسنًا.

• الدِّين يُريدك صاحب يدٍ عُليا تُعطي، ويُريدك قويًّا فذلك أحبُّ إلى الله تعالى مِنَ المؤمن الضعيف.

• الدِّين يُريدك أنْ تكفَّ عَنِ الناس شَرَّكَ، وأنْ ينتفع الناس بخيرك وعلمك (فَمنْ كتمَ عِلمًا ألجمه الله بلجامٍ مِنْ نارٍ يوم القيامة).

• والدِّين يُريدك أنْ تعمل بما تعلم، وأن تُخلص وتتقن فيما عملت، وأنْ تأكل حلالًا، وأنْ لا تطمع في ما عند غيرك.

• الدِّين يطالبك بأن تخالق الناس بخلق حسن.

• الدِّين يطالبك بأن تكون صاحب عقيدة صحيحة وراسخة وثابتة.

• الدِّين يطالبك بأن تكون صاحب عبادة تقرِّبُك وتُوصِلُك بالله ﷻ.

• الدِّين يطالبك بأن تكون صاحب تعامل صادق، لا غشَّ فيه ولا كذب ولا ربا ولا تفحُّش.

فأي تعارض بين الدِّين ومصالح الناس؟

❁ ❁ ❁

والله ما حمى أحدًا في هذه الدُّنيا ومصالحَ الناس إِلَّا اللهُ تبارك وتعالى؛ حرَّم الظلم، وحرَّم الاعتداء، وحرَّم أكل أموالِ الناس بالباطل، حتى الخوض في أعراضهم والسخرية منهم ومعايرتهم بعيوبهم وعدم سترها، وحرَّم الغيبة والنميمة وشهادة الزور، وجعل للقذف حدًّا، وجعل للبيوت حُرْمَةً وأمنًا وحرَّم التعدِّي عليها، وجعل للإنسان كرامة وحرَّم النيل منها، وأمرنا أنْ نكون مُنصفين عادلين ولو على أنفسنا أو الأقربين؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وأمرَ بالإحسان وصلة الأرحام ونجدة الملهوف والكرم، ودعا إلى مكارم الأخلاق.

وأحكم ذلك كله وِفْقَ منهجٍ قويم ودينٍ سديد، وجعل العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة قوام ذلك كله.

أَبَعْدَ ذلك كلِّه يأتي مريض القلب، عليل الفِكرِ ويقول: إِنَّ المصالح تتعارض مع الشرائع!؟

❁ ❁ ❁

الوجه الرابع: بين الشرع والفطرة :

• الشَّرع هو شرع الله ﷻ، والفطرة هي فطرته التي خلق الإنسان عليها مِنْ توحيده وإفراده بالعبادة ومحبته، فكان الدليل على الفطرة السليمة هو الشرع الحنيف، فكل صاحب فطرة منكُوسة لا بُدَّ أنَّ وَرَاءها تقصيرًا في شرعِ الله تعالى، وَخللًا في نظامِ حياته مخالفًا لكلام الله ورسوله ﷺ.

• وصاحب الفطرة السليمة لا بُدَّ أنْ تدلَّهُ فِطرتُه على الله تعالى، أمَا سَمِعتَ الأعرابي في الصحراء وهو يتحدَّث ويتعجَّب ممن يُنكر قدرة الله تعالى؛ فيقول:

البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماوات ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الخبير العليم؟!

فإذا أقرَّت الفطرة بوجود الله تعالى، وأنَّه الخالق والمالك والرزَّاق والضَّار والنَّافع وحده، ألا يستلزم ذلك أنْ يكون لله تعالى أمرٌ ونهيٌ وَحَكمٌ عليه، وهيبة ورهبة منه إجلالًا وتعظيمًا.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

• أمَا يكفي صاحب الفطرة السليمة أنْ تكون لله عنده مَهابةٌ وخشيةٌ وتعظيمٌ وإجلالٌ لكونه ربَّ الناس، وَمَلِكَ الناسِ، وإلهَ الناس؟! هذا الربُّ والمَلِكُ والإلهُ، ألا يستحق مقامُ ذي الجلال والإكرام أنْ يكون أغلى وأعزَّ مقامٍ عند الإنسان سليم الفطرة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[الرحمن]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

❁ ❁ ❁

• إنَّ كلَّ مستهزئ بالله تعالى أو برسوله ﷺ أو بكتابه، أو مكذِّب أو مُنكر لأيِّ آيةٍ مِنْ كتاب الله أو حديث مِنْ أحاديث رسوله ﷺ، أو مَنْ يفضِّل هديًا وتعليمًا على هدى الله ورسوله لهو منتكس الفطرة، ممن بدَّل فطرة الله تعالى.

• إنَّ أصحاب العقائد المنحرفة مِنْ فِرقِ الضلال، وكلَّ تاركٍ للصلاة مانعٍ للزكاة مِنْ ممسوخي الفطرة، وكلَّ مَنْ استحلَّ ما حرَّم الله، أو حرَّم ما أحلَّ الله ممسوخُ الفطرة؛ لأنَّ علامة الفطرةِ السليمة اتِّباع شَرعِ اللهِ وعدم العبث به، أو التقليل مِنْ شأنه، أو تفضيل شرع غيره عليه.

❁ ❁ ❁

• إنَّ احترام النَّفس البشريَّة باعترافها بربوبيَّة الله تعالى عليها، وإقبالها عليه، واحترامها لدينه وكتابه ورسوله لهو الدليل الوحيد على سلامة الفطرة، ونقاء سريرتها، وصحة مسلكها. والله المستعان.

أمَّا عندما تنتكس الفطرة، ويحل التبديل لشرع الله ﷻ، تكون الانتكاسة في الإنسانية متمثلةً في الأخلاق والقيم، وظاهرةً في أنواع الشِّرك، والانحراف بالعقل عن عبادة خالقه جلّ وعلا، ومتجلِّيةً في أنواع مِنْ المعاملات التي أباحت الاستغلال والجشع والطمع والاحتكار والتنافس في الباطل، وتحلُّ القسوة بديلًا عن الرحمة، ويغلب الظلمُ العدلَ، ويتناحر الناس ويتناجزون ويتخاصمون حول شكليَّات وفرعيَّات، ويُصبح الناس فِرقًا وأحزابًا كلُّ حزب بما لديهم فرحون؛ ليظلَّ كل ظالمٍ فرعونَ، وكلَّ وطاغيةٍ مستعبِدًا لغيره في ظل هذه الانتكاسة في الفطرة، والناسُ مِنْ حوله في غمٍّ وكَربٍ وضيقٍ وشدةٍ، مُستَعْبَدِين بقوانين مُقيدة لحريتهم، هاتكةٍ لإنسانيتهم، بعيدة كل البُعد عن الرّقي بهم وتحقيق السعادة والأمان والأمن لهم.

• لو فرضنا أن مولودًا تركه أبواه في بيئة ليس فيها إنسان يتعلَّم منه ويقلِّده ويحاكيه، لنشأ عند بلوغه سنَّ الرشد مؤمنًا بالله ﷻ، يتعلَّق قلبه وفِكْره به سبحانه؛ وصدق الرسول القائل: **{ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ }**(١).

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري: ك: «الجنائز»، ب: «إذا أسلم الصبي فمات»، ح: «١٣٥٨»، ومسلم: ك: «القدر»، ب: «معنى كل مولود يولد على الفطرة»، ح: «٢٦٥٨» عن أبي هريرة ﷺ.

الوجه الخامس: بين الشرع والواقع :

• هل هناك عائق في الدِّين يَمنَعُ الناسَ مِنَ التطور أو الأخذ بنظم الحياة الحديثة ومسايرة رَكْب التطور العلمي والتكنولوجي؟

لا يُعْلَمُ نَصٌّ مِنَ الكتاب والسُّنَّة، يدل على ذلك؛ بل إنَّ النصوص متواترة في الدعوة إلى السَّيْرِ في الأرض، والتفكُّر في خلق السماوات والأرض، واختلاف الجبال ﴿جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر]، واختلاف الليل والنهار كلها آيات لقوم يتفكرون.

والخلافُ الوحيدُ بيننا في هذه المسألة هو ألَّا يُصاحب هذا التطور والأخذ به مُحَرَّمٌ مِنَ المحرمات أو يؤدي إلى بُعدِ الناس عن ربهم، فتتحول حياتهم إلى مادية أو رهبانية.

• أضرِبُ لذلك مثالًا: استخدام الطائرات والسفن في نقل الركاب وسياحتهم مِنْ بلدٍ إلى آخر، ينتفع به المسلم كما ينتفع به غيره. ولكنَّ الفرق أنَّ طائرات المسلمين يجب أنْ تخلو مِنَ الخمور ومن النساء المتبرِّجات الجميلات المائلات المميلات على متنها. وهذا شيء يسير ومِنْ مصلحتهم وفي صالحهم، أليس مِنَ المحتمل أنْ يشرب كابتن الطائرة جرعة مِنَ الخمر فيسكر بها فَيهلَك ويُهلك مَنْ معه؟، أو يسكر أحدُ الركاب فيحدث اضطرابًا بين الركاب ويصيبهم الفزع والهلع. أو ينشغل مع مضيفة من المضيفات على متن الطائرة فتحل عليه نقمة الله تعالى وسخطه؟!

❁ ❁ ❁

• إِنَّ الأخذ بالعلوم الحديثة، وتكنولوجيا العصر واجبٌ شرعي وفرض كفاية بشرط حماية هؤلاء العلماء والباحثين مِنَ التلوث الفكري، والانحراف الجسدي.

كان في أيام الخديوي عباس في مصر منذ قرابة مائة عام تقريبًا، عندما كان يُرسل الوفود العلمية إلى دول أوربا للتعليم ونيل الشهادات العليا وعمل الرسائل الجامعية مِنَ العالية والعالمية (الماجستير والدكتوراه) ومع كُلِ وفدٍ شَيخًا يُتابع معهم حفظ القرآن، ويُصلى بهم الصلوات الخمس، وينصحهم ويوجِّهُهُم ويحذِّرُهم مِنَ الانحراف أو التأثر بالبيئة أو الحياة هناك، ويبين لهم ما استشكل عليهم مِنَ الشُّبُهات، ويخفف عنهم آلام الغربة، ويُصبرهم على طلب المعارف، وهذا الشيخ مسئولٌ عنهم حتى لا يعودوا إلى بلادهم بعلوم مادية في طياتها مسخٌ لهُويتهم وتشكيك في دينهم. (كما حدث لرفاعة الطهطاوي وطه حسين وغيرهما) لذلك اشترط العلماء لسفر المسلمين إلى بلاد الكفَّار هذه الشروط:

١- عقيدة وعلم شرعي يدفع به الشُّبُهات.

٢- إيمان ومراقبة لله ﷻ يدفع بها الشَّهَوات.

٣- صحبة صالحة ومكان آمن.

٤- رسالة أو ضرورة لسفره هناك.

٥- إقرار بأن هذه الدُّنيا هي جنة الكافر والآخرة هي جنة المؤمن، حتى لا يغتر بها أو يفتن بالدُّنيا هناك.

٦- التواصل مع المسلمين في تلك البلاد والمراكز الإسلامية الشرعية حتى يتمكن من صلاة الجماعة والجمع والأعياد والتواصل مع المسلمين هناك.

٧- الانشغال بهموم الدعوة والدعاة والمسلمين هناك بجانب المهمة التي سيذهب من أجلها.

٨- ألَّا يطيل مدة السفر عن أربعين يومًا.

٩- أن يشغل وقت فراغه بالنافع المفيد.

١٠- أن يصحب معه زوجته إن تيسَّر له ذلك.

❁ ❁ ❁

• إن مِنْ مزايا الإسلام الكبرىٰ مخاطبة واقع الإنسان؛ فالإسلام معه في متجره يأمره بالصدق والأمانة ويُحرِّم عليه الغش وتطفيف الميزان، ويُحذره مِنَ التعامل بالرِّبا، ويُشَدِّدُ عليه مِنَ استغلال حاجة الناس فيُحرِّم عليه الاحتِكَار والرِّبا والنَّجش، ويُوجب عليه فقه المعاملات ويحذره مِنَ البيع والشراء إذا نودي للصلاة مِنْ يوم الجمعة، ويشترط عليه ألَّا يتاجر في مُحرَّمٍ مِنَ المحرَّمات.

والإسلامُ معه في مدرسته وجامعته يأمره بالاجتهاد والجدِّ ويُحضُّه علىٰ طلب العلم النافع، ويُوصيه باحترام العلماء والمعلمين والمدرسين فهم أصحاب فضلٍ وعلم، ويحثه علىٰ اختيار الصاحب النَّافع والصديق الصالح.

والإسلام معه في زراعته وحقله، يأمره بالتأمّل والتدبّر؛ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة].

ويُعلمه التوكل والسَّعي والبكور، ويأمره بإخراج زكاة الزرع؛ ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ويقصّ عليه قصّة الثلاثة الذين فَرِحوا بالزرع، وأرادوا حِرْمان المساكين ليحذرهم مما صنعوا.

والإسلام معه في مصنعه ومعمله يأمره بإتقان العمل، وعدم الغش، وأنْ ينفع أُمته بِعلمه، ويحثّه علىٰ البحث والتطوير والاختراع، ويحذره مِنْ ألَّا يشغله العمل عن إقامة الصلاة وتوزيع الحقوق، (إنَّ لرِّبك عليك حقًّا، ولبدنك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حقٍّ حقَّه).

والإسلام معه في بيته يأمرهُ بالخيرية: «خَيرُكُم خَيرُكُم لأهلِهِ»(١)، وبإكرام

(١) أخرجه الترمذي: ك: «المناقب» ب: «فضل أزواج النَّبي ﷺ» ح «٣٨٩٥» عن عائشة

النِّساء: «**اسْتَوصُوا بِالنِّساءِ خَيرًا**»(١)، وأمرَهُ بُحسن العِشرة والغيرة عليهنَّ، والإنفاق عليهنَّ وبحسن صُحبتهنَّ، وَحضَّهُ على تربية الأبناء ورعايتهم. فمتى كان خطاب الإسلام للناس يخالف مصالحهم وبعيدًا عن واقعهم؟!

وهو عندما يُخاطبهم في واقعهم، يُخاطبهم بالشيء المثالي الذي يستحيل على الإنسان أنْ يأتي بأفضل منه أو أقيم منه.

فهو سبحانه قد أحكم آياته، وفَصَّلها لصالح الإنسان ورقيّه ورفعته: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ**﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧].

فكل مَنْ أراد لنا الميل عن الإسلام وتعاليمه أو النَّيل منه أو مِنْ اتِّباعه استحق الوصف الربَّانيّ له مِنْ سُوءِ طويته وقُبح سَريرته وأنَّه ممن يتبع الشَّهَوات والأهواء.

❁ ❁ ❁

• فرض الإسلام على المسلم أمرين: **الأول**: أن يتعلم توحيد الله ﷻ، وأنْ يتعلَّم الحلال والحرام، والفقه المتّصل بالعبادات كيف يتطهر ويُصلي، وأحكام الصيام والزكاة والحج والصدقات والجهاد.

والثاني: فرض عليه مهنةً يتعلمها، أو صنعةً يُجيدها، أو حرفةً يكتسب منها، أو عِلمًا يُعلمه للناس.

كان أصحاب النَّبي ﷺ على عِلْمٍ بالتوحيد، والحلال والحرام، وفقه العبادات، وهم في نفس الوقت تجد فيهم مَنْ برع في الحلم والأناة والحُكْمِ **كأبي بكر** رضي الله عنه

رحمه الله، وقال أبو عسيى: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه البخاري: ك: «النكاح»، ب: «الوصاة بالنساء»، ح: «٥١٨٥»، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كان تاجرًا، ومنهم مَنْ بَرِعَ في العدل والغيرة على الدِّين والقوّة فيه كـ**عمر بن الخطاب** ﷺ وكان قاضيًا، ومنهم مَنْ بَرِع في التجارة كـ**عبد الرحمن بن عوف**، و**عثمان بن عفان** ﷺ، ومنهم مَنْ بَرِع في الزراعة كـ**كعب بن مالك** و**هلال بن أميّة** ﷺ، ومنهم مَنْ بَرِع في القتال كسيف الله المسلول **خالد بن الوليد**، و**أبو دجانة الأنصاري** ﷺ، ومنهم مَنْ برع في العلم والفقه كـ**ابن عباس** ﷺ، ومنهم مَنْ بَرِع في علم الحديث وروايته كـ**أبي هريرة** و**أم المؤمنين عائشة** ﷺ، ومنهم مَنْ بَرِع في القراءَات وعلوم القرآن كـ**العبادلة الأربعة** ﷺ، ومنهم مَنْ برع في الترجمة كـ**زيد بن ثابت** ﷺ، وأمثال ذلك كثير، وكلهم مجاهدون في سبيل الله، تأخذهم الغيرة على دين الله ﷻ لا مساومة ولا مُداهنة في دين الله تعالى، فتجد لكل صحابي دورًا وعملًا يعمل على إحياء أمّته ونفعها وإعزازها، وهو في نفس الوقت متمسك بدينه يُقيم العبادة، ويُحسن المعاملة، حَسَنَ الخلق إنه الفهم الجيد والصحيح لمعرفة العلاقة الصحيحة بين الشّرع والواقع.

❁ ❁ ❁

وقفة
الجَعَاظِرَة الجوّاظونَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: { إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ}. [أخرجه ابن حبان في صحيحه، ح: (٧١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٤)]. والجَعْظَرِيُّ الجَوَّاظُ: هو الجسيم الأكول الشروب، يختال ويتعاظم.

«هذا الوصف النَّبويّ الرائع، الذي سما بتصويره إلى القمَّة في البلاغة والإبداع، لهؤلاء الفئام مِنَ الناس ـ أستغفر الله ـ بل مِنَ أشباه الحيوان.

تجده كلَّ يوم في كثير ممن ترى حولك، ممن ينتسبون إلى الإسلام.

بل تراه في كثير مِنْ (مشاهير) الأمَّة الإسلامية (اليوم)، عظمة الدُّنيا لا الدِّين.

بل لقد تجده فيمن يُلَقَّبون منهم أنفسهم بأنهم «علماء»، ينقلون اسم «العلم» عن معناه الإسلامي الحقيقي، المعروف في الكتاب والسُّنَّة، إلى علوم مِنْ علوم الدُّنيا والصناعات والأموال. ثم يملؤهم الغرور، فيريدون أنْ يحكموا على الدِّين بعلمهم الذي هو الجهلُ الكامل!، ويزعمون أنهم أعرف بالإسلام مِنْ أهله، وينكرون المعروف منه، ويَعرِفون المنكر، وَيَرُدُّون مَنْ يرشدهم».

❁ ❁ ❁

« الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ وَمَصَابِيحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامَ بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ وَهُوَ إِمَامٌ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءُ »

«مِنْ أقوال معاذ بن جبل ﷺ» (جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٥)

ثانيًا: حدود الإصلاح

ربما يسأل سائل ويستفسر فيقول: أنَّ كُلَّ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ جَميلٌ وحقٌّ. فما هي إذن حدود الإصلاح والتجديد؟

نقول وبالله التوفيق: هناك ثلاث اصطلاحات: (التغيير، الإصلاح، التجديد). ونبدأ مع كل مصطلح كما يلي:

الأول: التغيير:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

• التغيير سِمَةٌ مميزةٌ وملاصقة للنفس البشريَّة، ومِنْ سُنَنِ الله تعالى في الكون، فما مِنْ شيءٍ يستقرُّ على حال؛ لذلك أرسل الله تعالى الرُّسُل على فترات، وغيَّر معهم الأُسلوب بكتاب جديد، ونبيٍّ جديد؛ ليلائم تطورهم ووضعهم الجديد.

مع ملاحظة أنَّ التغيير هنا في الأسلوب والأشخاص، لكنَّ الدِّين واحد، وأصوله ثابتة لا تتغير، فكانت دعوتهم جميعًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وما مِنْ رسول إِلَّا دعا قومه: «**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، فالأنبياء أمهاتُهم شتى ودينهم واحد. كما أخبر خاتم الرُّسُل محمد ﷺ.

• والله ﷻ جعل التغيير سُنَّةً لا تتغير ولا تتبدل، وهذا مِنْ عَدْلِ الله تعالى، حتى لا يأتي أحدٌ ويقول يا رب لِمَ وفقت هذا وبَدَّلتَ أحواله، وأنا لم تُغير أحوالي وتُبدل أُموري؟ فيأتي ناموس الله سبحانه عدلًا وفضلًا بأنَّه سبحانه ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا

﴿بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

• وفَضلُ الله تعالى لا يأتي للكسالى ولا لأصحاب الأماني، فإذا تَغيَّر الكسلان إلى النشاط والهمَّة جاءه التغيير والتوفيق، وأصحابُ الأماني إذا تحولوا إلى واقع ملموس وعملٍ محسوس، وبدءوا ترجمة هذه الأماني على أرض الواقع بجهد ومجهود جاءهم التغيير والتوفيق، فالأماني الصحيحة الصالح هي التي تأتي عندأعلى نقطة في منحنى العمل والهمة والنشاط والبذل والعطاء.

وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]: إذا تغيرت أحوال الناس مِنَ المعاصي إلى الطاعات، بدَّل الله تعالى أحوالهم مما يكرهون إلى ما يُحبون، وإذا تغيرت أحوال الناس مِنَ الطاعات إلى المعاصي بدَّل الله أحوالهم مما يُحبون إلى ما يكرهون.

❁ ❁ ❁

• هل جهود التنمية والبِناء تكفي وحدها للتقدّم والرُّقي؟ أم يلزم مسايرة ذلك جهود حثيثة، ومساعي مضيئة لمحاربة المعاصي والفساد؟

وأضربُ على ذلك مثالًا يدل على أنَّه لا تنمية ولا تقدم إِلَّا بالربط بين الاثنين، فالرّشوة على سبيل المثال هل يمكن أن تُحدِث تنميةً؟ والرّشوةُ مِنَ عوائق التقدّم وأكبرُ مشجعٍ للغشِّ والنصب والكسب غير المشروع حرَّمها الله تعالى، وجعلها من كبائر الذنوب، بل إنَّ الراشي والمرتشي والرائش -الواسطة بينهما- يستحقون لعنة الله تعالى عليهم، وعقابهم بجهنم جزاءً لما اقترفوا مِنَ مال وكسب غير مشروع، ولأنها تؤدي إلى نتائج سلبية وعكسية، وقدح في أمانة الرجل، وخيانة للمسئولية والوظيفة المكلف بها، وإثمٌ مِنَ أعظم الآثام.

• فالتوفيق والسداد مِنَ الله وحده، وتوفيق الله وهدايته لا يأتي للعُصَاة مِنَ المؤمنين وهم على المعاصي، على عكس الكافرين؛ لأنَّ الدُّنيا هي جنتهم.

وأفضل طريقة للتنمية أنْ نسير في اتجاهين أساسين :

الأول: العمل على تغيير أحوال الناس مِنَ المعاصي إلى الطاعات، وتوفير البيئات اللازمة لذلك، وتشجيع العلماء والمربين وتدريبهم على هذه المهمة.

الثاني: الأخذُ بالمنهج التجريبي للمعارف الدنيوية وتكنولوجيا العصر وترجمتها بِلغُتِنَا والعمل على تطويرها وتحسينها حتى تلائم بيئتنا ومجتمعاتنا.

بذلك يتم التغيير في بلاد المسلمين، مع أخذ الدين بقوة، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خير الأمم وأعلاها عند الله (جلَّ وعلا)، مع عدم إهمال مهمة الأمة الإسلامية الخاتمة الأساسية وهي: هداية الناس ودعوتهم إلى الخير، ونشر الإسلام في ربوع العالمين.

❁ ❁ ❁

الثاني: الإصلاح:

قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، **فلا بُدَّ للإصلاح مِنْ**:

١- نيّة صالحة وصادقة **(إِنْ أُرِيدُ)**، وإرادة الإصلاح يجب أنْ تنبع بصدق، فشرارة الصدق عندما تنطلق في نفوس المصلحين تجعل الإصلاح عملًا وواقعًا لا شعارات وأماني.

٢- أنْ يبذل في سبيل ذلك الإصلاح كلَّ ما في وسعه وما يصل إليه جهده ووقته وعقله وفكرة مما يدل على إخلاصه وصدقه **(مَا اسْتَطَعْتُ)**.

٣- أنْ يكون في طريقه إلى الإصلاح مع الله تعالى فلا يُخالطه أو يُصاحبه مُنْكر أو فاحشة، لأنَّ توفيق الله تعالى يقطعه على العبد المنكرات والفواحش. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧].

٤- لا بُدَّ مِنْ عزيمةٍ قويةٍ ومثابرةٍ على العمل ثم التوكل على الله تعالى؛ لأنَّ مِنْ شروط التوكُّل الإيمان بالله، والأخذ بالأسباب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق].

وقال الرسول ﷺ «**اعقِلْهَا وَتوكَّل**»(١).

٥- لا بُدَّ مِنَ التوبة إلى الله تعالى مِنَ التقصير في حق الله تعالى وحق نفسك وحق أُمَتِكَ، حتى يتم الإصلاح، فلا بُدَّ مِنَ التوبة وَردِّ الحقوق إلى أهلها، والعزم على عدم العودة إلى المعاصي، والنَّدم عليها بعد الإقلاع عنها، وفِعْل الحسنات التي يُذهب الله بها السيئات، وتغيير بيئة المعصية والدافع والمعين عليها، وعدم البُخل أو الشُّح عند الإصلاح.

٦- محاربة النفاق الإداري والسياسي، وتضيق المجال على النِّفاق العقائدي، والتخلُّص مِنْ صفات المنافقين كالكذب، ومخالفة المواعيد، ونقض العهود، والفجور عند الخصام، وخيانة الأمانة؛ لأننا إذا لم نَعرف الشَّر والفساد فلا يمكننا تجنبهما، ويستحيل فعل الخيرات بدون معرفة الشرور والسيئات؛ لذلك كان حذيفة ﷺ يقول: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيرِ، وَأَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِ مَخَافَةَ أَنْ أَقَعَ فِيهِ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي: ك: «صفة القيامة والرقائق» ب: «ما جاء في صفة أواني الحوض» ح: «٢٥١٧»، مِن حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: ك: «المناقب» ب: «علامات النبَّوة في الإسلام» ح: «٣٦٠٦»، ومسلم: ك: «الإمارة» ب: «وجوب ملازمة جماعة المسلمين» ح: «٣٤٣٤».

والقاعدة القرآنية، والأساس الإيماني هو:

- لا بُدَّ مِنْ معرفة الشِّركِ وتجنّبه حتى نقيمَ التوحيد.
- لا بُدَّ مِنْ معرفة الكُفرِ وتجنّبه حتى نقيمَ الإيمان.
- لا بُدَّ مَنْ معرفة الجاهليةِ وتجنّبها حتى نقيمَ الإسلام.
- لا بُدَّ مِنْ معرفة الكبائرِ وتجنبها حتى نعبدَ الله بالإحسان، وهو سبيل المؤمنين.
- لا بُدَّ مِنْ معرفة سُبلِ المفسدين حتى يتمَّ استِبدَالهم بالمصلحين والصَّالحين، وهو سبيل المؤمنين.

٧- معرفة قدر أنفسنا، وكيف نجيد ونُحسن استغلال ما تحت أيدينا مِنْ إمكانيات متاحة، ونعطي فرصة أكبر في تطويرها وتحسينها.

٨- لا بُدَّ لنا مِنْ صناعة جديدة، لا تحتاج إلى أرضٍ أو بناءٍ؛ إنها صناعة الأفكار، صناعة الأهداف، صناعة الرجال الذين تقوم عليهم أسس البناء والنهضة، صناعة الكرامة التي يزدهر الإبداع في ظلها وينمو ويزدهر.

٩- الاهتمام بالجوانب التربويَّة مِنَ الحضانة إلى الجامعة، وأنْ نرتقي في أساليب التربية والتأديب والإصلاح.

١٠- بناء الذَّات صاحبة الهمَّة العالية، وتشجيعها وتذليل الصعاب أمامها، وذلك بالإيمان بالله تعالى ثم تشجيع الاستثمار المحلي بأيدٍ مسلمة، وتشجيع عودة المال العربي والإسلامي إلى بلاده، وتوفير البيئة الآمنة للاستثمار والتنمية.

وذلك لأنه لا يُرجى إصلاحًا لمن يُصرّ على الباطل؟ ولا يرجى إصلاحٌ مِنْ أصحاب الجهل والغفلة، ولا يُرجى إصلاحٌ ممَّن حادّ الله ورسوله وحارب أوليائه ووالي أعدائه، ولا ممن ركن إلى الذين ظلموا، أو حكموا بغير ما أنزل الله ﷻ.

الثالث: التجديد:

• فَتَح اللهُ تعالىٰ لنا مجالًا كبيرًا للتجديد والتحسين والتطوير والإبداع في كل شئون الدُّنيا مِنْ زراعة وتجارة وصناعة ومواصلات واتصَالات، وأباح لنا أنْ نستخدم شتىٰ أنواع المعارف والأبحاث والتكنولوجيا، وأجزل الثواب والأجر لَمَنْ ينفع الناس أوْ ينتفع الناس بسببه، أوْ يعمل علىٰ تفريج كُرَبِهم وتسهيل أُمورهم واختصار الجهد والوقت فيما يُريدون الحصول عليه.

قال رسول الله ﷺ في درسٍ نبويٍّ بليغٍ: **{ أَنْتُم أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُم }**(١)، **{وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ }**(٢).

• ولقد نبغ وما زال ينبغ رجالٌ مِنَ المسلمين في شتىٰ معارف وعلوم الدُّنيا، فما رَأينا أو سمعنا عالمًا دينيًّا أو شيخًا حرَّم عليه ذلك، ولم يَدَّعُ الله تعالىٰ له بالتوفيق والحفظ.

فلما أقبلنا علىٰ المعارف الدنيوية اليوم أقبلنا عليها بطريقة خاطئة وناقصة رسمها لنا عدونا المحتل قبل رحيله عن ديارنا (**أقصد «دنلوب» الإنجليزي الذي وضع خطة التعليم في مصر أبان احتلال الإنجليز لمصر**)، وتأخرنا في الأخذ بها بطريقة علمية منهجية مدروسة، وأخذنا ننسب جهلنا وتخلُّفنا إلىٰ دين الله تعالىٰ، والذين فعلوا ذلك هم أبعد الناس عن الدِّين، وأكثرهم جهلًا به، وأعظمهم ضررًا علىٰ الدُّنيا والدِّين.

• والله تعالىٰ نَظَّمَ للمسلم عباداته ووزعها بين الأوقات ليُيَسِّر له مجالين:

---

(١) أخرجه مسلم: ك: «الفضائل» ب: «وجوب امتثال ما قاله شرعًا» ح: «٢٣٦٣» مِنْ حديث عائشة، وعن ثابت، وعن أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: ك: «المظالم والغصب» ب: «لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسلمه» ح: «٢٤٤٢»، ومسلم، ك: «البرِّ والصلة»، ب: «تحريم الظلم»، ح: «٢٥٨٠» مِنْ حديث ابن عمر ﷺ.

الأول: وقتًا كافيًا للحصول على معاشه والسعي عليه وطلب العلوم النافعة، وتعديل أحواله وتحسين معاشه.

الثاني: يكون لديه توازن بين الروح والجسم، ومتطلبات الدُّنيا والدِّين، فتتحقق له الطهارة الحسية والمعنوية مما يُساعده على تجديد نشاطه وعُلوِّ هِمَّته، وتتحقق له نفسية طيبة وراحةٌ للبال لا مثيل لها، وتتكون لديه القدرةُ على العطاء بلا حدود، وليتحول سعيه وكَدُّهُ إلى مصدر للسعادة والراحة.

فمن رحمة الله ﷻ وحكمته أنْ ترك لنا مجالًا واسعًا فسيحًا في التجديد والتطوير في الدُّنيا، فما أجمله وما أبدعه وما أروعه إذا كان محفوفًا بالالتزام بالدِّين لكي يكتمل البناء برحمة الله ﷻ وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

أما التجديد في الدِّين فلا بد من بيان هذه الأسس :

الأول: قرآن وسُنَّة صحيحة لا مجال فيها لتعديل النص أو إضافة فيه أو حذف أو تحوير أو تحسين أو تأويل مخالف لقواعد الشريعة وأصول التفسير.

قال تعالى - فيمن ضَلَّ مِنَ الناس -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال الله تعالى لأهل الإيمان: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

❁ ❁ ❁

الثاني: أنَّ القرآن والسُّنَّة وما فيهما مِنْ نصوص تتعلق بالعقائد والعبادات والحلال والحرام والمعاملات والحدود، و(الأوامر والنواهي) لا مجال فيها حتى للاجتهاد ناهيك أنها لا تقبل حتى التجديد في فهم معانيها ومرادها، ولقد ترك لنا ربنا سبحانه وتعالى مجالًا واسعًا للتفكير والإبداع في استخراج الحكم الباهرة،

ودلائل القدرة الإلهية واستخراج الاستدلالات العقلية التي تؤكد عظمة الخالق في تشريعه، ورحمته بخلقه وحرصه على مصلحتهم.

كمن أثبت الفوائد الصحية والعلمية في استعمال السواك الذي هو مِنْ سُنَّة النَّبيّ ﷺ. «**السَّوِاكُ مَطْهرةٌ لِلفمِّ مرْضَاةٌ لِلرَبِّ**»(١)، «**وَلَولَا أنْ أشُقَّ عَلَى أُمتِي لَأمَرتُهُم بِالسِّواكِ عِنْدَ كُلِ صَلَاةٍ**»(٢)؛ فصنعوا منه معجونًا للأسنان، وبُودرًا لغسل الأسنان.

وكَمَنْ أثبت أثر الصلاة في علاج دوالي الساقين، وأثر السجود على خلايا المخ وتحسين أدائها.

وَكَمَنْ بيَّن أضرَارَ الخمر والدخان والخنزير وسائر المحرمات وخطرَهما على صحّة الإنسان، وكذلك فوائد الصوم على صحّة الإنسان، والزكاة على تهيئة الشخصية وتزكيتها وتحسين العلاقات الاجتماعية.

وهذا مجالٌ عظيم ومفيد في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وفي بيان عظمة الله وعظمة كتابه، ويدخل تحت ذلك التأمل والتفكر في هذه الآيات والأحاديث، واستخراج منها الدرر النافعة والحكم الباهرة والأحكام الفقهية التي لا تستغني عنها الأُمَّة المسلمة.

❁ ❁ ❁

الثالث: هذه العبادات وقفية، أي وقفٌ على الله ﷻ ورسوله ﷺ؛ لقوله: «**صلُّوا كَما رَأيتُمُونِي أُصَلِّي**»(٣).

---

(١) ذكره البخاري «معلقًا» ك: «الصوم» في ترجمة باب: «سواك الرّطب واليابس للصائم»، عن عائشة مرفوعًا، ووصله النسائي، ك: «الطهارة»، ب: «الترغيب في السِّواك»، ح: «٥».

(٢) أخرجه البخاري، ك: «الجمعة»، ب: «السِّواك يوم الجمعة»، ح: «٨٨٧»، ومسلم، ك: «الطهارة»، ب: «السِّواك» ح: «٢٥٢» مِنْ حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري، ك: «الأدب»، ب: «رحمة الناس والبهائم»، ح: «٦٠٠٨»، عن الحويرث ﷺ.

وقوله: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم**»(١)، وكذلك التشريع فيما أحلَّ وحرَّم هو من أجَلِّ خصائص الربوبيَّة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣١] فقال **عديُّ بن حاتم** ﷺ -وكان نصرانيًّا وأسلم عندما سَمِعَ هذه الآية-: يا رسول الله نحن ما عبدنا الأحبار ولا الرُّهبان، ولم نجعلهم أربابًا مع الربِّ ﷻ. فقال له رسول الله ﷺ - مصحِّحًا له المفهوم والمعنىٰ، ومبيِّنًا له المضمون-: «**ولكن يحلون لهم ما حرَّم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله فيحرمونه، فتلك عبادتهم لهم**»(٢). وفي هذا الحديث فائدةٌ أخرىٰ وهي أنَّ فهم رسول الله ﷺ للنص هو المراد مِنْ قول الله تعالىٰ، لا كما فهم غيره؛ وهذه الفائدة هي الأَسَاس لجمع شمل الأُمَّة علىٰ دين واحد بعيدًا عن الهَوَىٰ والفِرَق؛ فلا مجال لِأيِّ مسلم ولا متسع لأن يُحوِّل المعنىٰ إلىٰ معنىٰ آخر، ما دام قد فصَّلهُ وبيَّنهُ رسولُ الله ﷺ، ولا مجال للحلال والحرام بعد بيان الله ﷻ ورسوله ﷺ.

إنَّ مِنْ علامات الساعة خروج أُناس مِنَ المسلمين يستحلّون المحرمات «كالزِّنا والحرير والرِّبا والمعازف»، وقد وقع كما أخبر به ﷺ، وسوف يمسخون قردة وخنازير.

❁ ❁ ❁

الرابع: أنَّ هناك قواعد في الدِّين، وأُصولًا في الفقه تتسع لمجالٍ كبير مِنْ الاجتهاد والقياس عليها لتوافق مصالح الناس في كل زمان ومكان، والمستجدات

---

(١) أخرجه مسلم: ك: «الحج» ب: «استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر» ح: «١٢٩٧» بنحوه، ولفظه أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى»، «٥/ ٢٠٤» مِنْ حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي، ح: «٣٠٩٥» بلفظ قريب، والبيهقي في «السنن الكبرى» «١٠/ ١٩٨» بلفظه.

في كل عصر ومصر؛ وهذا مِنْ عظمة هذا التشريع وكماله وصلاحه لكل زمان ومكان.

ومثال ذلك: تحريم العلماء للدخان والحشيش والبانجو والبودرة والهيروين؛ **وذلك استنادًا للقواعد التالية:**

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء].

فكل ما يؤدى إلى قتل النّفس التي حَّرم الله قتلها إِلَّا بالحقِّ يكون محرَّما.

- وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فما دَلَّ عليه العقل السليم وأجمع عليه المسلمون، ووافق الفطرة الرشيدة أَنَّه مِنَ الخبائث كان مُحَّرمًا.

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

فكل صرفٍ وإنفاقٍ للمال والوقت والجهد فيما لا يفيد يكون تبذيرًا ويكون محرَّمًا شرعًا.

- وكذلك كُلّ ما فيه كفر بنعم الله تعالى وإنفاقها في غير وجهتها يكون مما نهى الله تعالى عنه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

- إيذاء المؤمنين حرام شرعًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب].

- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، وتناول هذه

الأشيَاءَ مخالفٌ للأمر بالأكل مِنَ الطيبات.

● وقوله ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ**»(١)؛ فَكُلُّ ما فيه ضَرَرٌ بالنفس أو المال أو العقل أو العِرض أو الدِّين مُحَرَّمٌ شرعًا، وكذلك ما ثبت فيه ضررٌ للغير محَّرم أيضًا ومخالفٌ للإسلام «**فالمسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ لسانه ويده**»(٢).

● وَضَررُ هذه الأشياء ثابتٌ بما ليس فيه مجال للشكِّ فهو سبب الموت البطيءِ، والموت المفاجئ نتيجة لانسداد الشرايين والحويصلات الهوائية، والسرطان، وأمراض الصدر والرئة، وتليف الكَبِدِ والقُرحات، بل ينبعث مِنْ نفث المدخن في زفيره اثنا عشر غازًا سامًّا تؤثر على مِنْ حوله.

● وقوله ﷺ: «**لا تزولُ قدمَا عبدٍ يومَ القيامة حَتَّى يُسْأل عَن خمس: عُمرِه فِيمَا أفنَاهُ، وَعَنْ شَبَابهُ فِيمَا أبلَاه، وَمَالَهُ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أنفَقَه وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»(٣).

فلا بُدَّ أن يكون كسب المال مِنْ طيبٍ وإنفاقه في طيبٍ.

● وَقَوله ﷺ: «**ما أسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُه حَرَامٌ**»(٤).

ومناط ذلك كله: الخطر في المجاهرة بهذه المعاصي، قال ﷺ: «**كل أُمتي معَافىً**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، ك: «الأحكام»، ب: «من بنى في حقه ما يضر بجاره»، ح:«٢٣٤١» من حديث بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري: ك: «الإيمان» ب: «المسلم مَنْ سلم المسلمون» ح: «١٠»، ومسلم: ك: «الأيمان»، ب: «بان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل»، ح: «٤٠» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي: ك: «صفة القيامة والرقائق» ب: «في القيامة» ح: «٢٤١٦» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي: ك: «الأشربة» ب: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» ح: «١٨٦٥» عن جابر رضي الله عنه.

إلَّا المجاهرين»[(١)]، فالشيء الطبيعي أنْ يستَحي المسلم مِنْ أنْ يراه أحدٌ وهو على معصية الله تعالى، أو فِعْلِ مُحرَّمٍ أو عملٍ قبيح، فإذا جاهر وأعلن وفعل أمام الناس فقد هتك سِتْرَ الله تعالى عليه وتجرَّأ عليه، والأصل أنْ يعبد المسلم الله ﷻ كأنه يراه، فإنْ لم يكن يراه نزل وسفل درجة فليعبده لأنه سبحانه يراه.

● ويكفي في حُرْمَتِها عدمُ حياءِ مَنْ يقترف هذه المحرمات مِنْ الله تعالى، فقد يستحي مِنَ الناس ولا يستحي مِنَ الله تعالى، ولا يعمل لمقام الله تعالى حساب؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

● هذا بجانب فتاوى الأئمَّة في حُرمَتِها الشرعيَّة استنادًا لهذه القواعد والأدلَّة، وهذا مثالٌ واضح للاجتهاد واستنباط الأحكام وفق القواعد العامَّة والأُصول المقررة في الشريعة، التي نستطيع التعامل مع أيِّ مستجدات في هذا العصر.

❁ ❁ ❁

الخامس: هناك آياتٌ وأحاديث تحكي قصصَ السابقين مِنَ الأنبياء والمرسلين والصالحين والحكماء، وهنا مجال فسيح للعقل والتجديد والإبداع في استخراج الفوائد التربويَّة المهمَّة والنافعة للأمَّة[(٢)]؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

---

(١) أخرجه البخاري: ك: «الآداب» ب: «ستر المؤمن على نفسه» ح: «٦٠٦٩»، ومسلم، ك: «الزهد»، ب: «النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه»، ح: «٢٩٩٠»، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) راجع كتاب: «١٥٠ عبرة وفائدة من قصة قارون»، وكتاب: «خمسون درسًا مستفادًا في حديث الغار» وكتاب«ستون درسًا مستفادًا يوم عاشوراء»، وكتاب«مائة درسًا مستفادًا من حديث السفيتة»، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

السادس: في القرآن والسُّنَّة ما يزيد عَنْ أَلْفِ آية وحديث لها دلالات شرعيَّة واضحة، وتُخفي في طياتها إعجازًا علميًّا رائعًا ومُبدعًا ومُحيرًا للعقول، وهذا مجالٌ عظيم يعُلمنا ويوجب علينا أنْ نكون أمةَ العلم والاختراع بعد أنْ نُؤدي رسالتنا الأَسَاسِيَّة في كوننا أمَّة البلاغ والهداية.

وهذه الآيات مجال واسع للإبداع والتجديد والبحث والدعوة إلى الله تعالى وبيان محاسن الدِّين والبراهين على صِدْقِه، وعمل البحوث العلميَّة والمعمليَّة لإثبات ذلك، مع الأخذ بشروط العلماء الذين أجازوا هذا النوع من التفسير العلمي لآيات الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

❁ ❁ ❁

السابع: في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهّرة دعوة واضحة للتأمّل ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة]، وللتدبُّر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء:٨٢]، وللتعقّل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]، وللتذكّر ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام].

فالدعوة إلى التفكُّر والتدّبر والتفكير والتذكر واجبٌ شرعي وفريضة إسلامية على كل مسلم فيما أباحه الله تعالى له مِنْ مجال.

❁ ❁ ❁

الثامن: ومع ذلك كله حذَّر الله تعالى العقل مِنْ أنْ يخوض فيما لا يناسب خلقه أويُهلك فكره؛ كتفكُره في الرُّوح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، وفي الساعة، وعن الغيبيّات مِنَ الملائكة والجنّ والشياطين إِلَّا ما أخبرنا هو سبحانه عنهم، والخوض في ذات الله تعالى لأَنَّهُ

سبحانه ليس كمثله شيء، وكُلُّ ما خطر ببالك فالله ﷻ بخلاف ذلك؛ وكما ورد: { تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ - يَعْنِي عَظَمَتَهُ - وَلَا تتَفَكَّرُوا فِي اللهِ } (١).

الكونُ وما فيه إعجازٌ في الخلق والتَّرْكِيبِ والتيسير. فتبارك الله أحسنُ الخَالقين.

فلماذا نترك المجال الواسع الفسيح للإبداع والتحسين والتطوير والتجديد، ثم نحبس أنفسنا وأفكَارَنا وعقولنا ونتجرأُ على مقام الله ﷻ وحقّه في التشريع والأحكام؟ لماذا نُضيق على أنفسنا ما وَسَّعَهُ الله تعالى علينا؟

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٦٢) مِنْ حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقفة

الطائفة المنصورة في قوله ﷺ: { لا تزال طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم مَنْ خَذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك }(*).

هذه هي الطائفة التي تتولى مهمة المحافظة على تعاليم الدِّين لهذه الأمَّة، وهو جزء مِنْ معنى (قيامها بأمر الله).

وحيث إنَّ للتجديد أثرًا كبيرًا في واقع الأمَّة، لذا فالمجددون هم الذين يدافعون غربة الدِّين، ويدفعونها، ويُحيون ما اندرس مِنَ الشرائع.

وتتضاعف مسئوليتها وتعظم كلما ازداد الشَّر والفساد في الأمَّة، واستفحل وتضاعف.

والتجديد يحتاج إلى «رجال» تتولى إحياء الدِّين في جوانب الحياة الإسلامية فيقومون بالدِّين قيامًا كاملًا لا يُفَرِّقُونَ.

ومِنْ أجلِّ صفاتهم قيامُهم بأمر الله، وثباتُهم على ما عليه مِنَ الحقّ والدِّين والاستقامة، والقيامُ بأمر الله وجهادُ أعدائه، بحيث لا يثنيهم عن ذلك شيءٌ مِنَ العقبات والعوائق والمثبطات رغم استحكام الغربة، وكثرةِ المخالف، وقلّةِ الموافق، واختلاطِ الأمر، وكثرةِ الأدعياء.

واللهُ تعالى يؤيدهم بالحجّة والبيان، وسيطرتهم على العقول والقلوب، واعتمادهم الحق الصريح المقتبس مِنَ الكتاب والسُّنَّة.

❁ ❁ ❁

(*) أخرجه البخاري، ك: «الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة»، ب: «قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة ...»»، ح: «٧٣١١»، ومسلم: ك «الإمارة»، ب: «قوله ﷺ لا تزال طائفة مِنْ أمّتي»، ح «١٩٢٠» عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.